Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

خالد محمد خالد

الدين في خدمة الشعب

الطبعة الثانية

لجنة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد — بمصر

خالد محمد خالد

الدين في خدمة الشعب

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد (سابقاً الجبلاية)

893.791
K5265

فى هذا الكتاب

	الصفحة
١ — حقوق الإنسان من حقوق الله	٧
٢ — ليس فى دين الله اقطاع	١٤
٣ — حق الشعب فى أن يحكم نفسه ، بنفسه ، لنفسه	٢١
٤ — حق الشعب فى المعارضة ، والمقاومة	٢٦
٥ — حق الشعب فى الحرية ، والسلام	٣١
٦ — حق الشعب فى المساواة	٣٦
٧ — هذا المال	٤١
٨ — أناقة النفس	٤٦
٩ — سيرى مع القافلة	٥٠
١٠ — درس من محمد	٥٤
١١ — قاتلوا الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا	٥٩
١٢ — معاً حتى لا تنتحر البشرية	٦٥
١٣ — الثروة القومية ، من شعائر الله	٧٠
١٤ — طيبات الحياة ، جميعاً لهم	٧٧
١٥ — الاستعمار إلحاد	٨٢
١٦ — الناس إخوة	٨٧
١٧ — فلنفسح الطريق للكلمة	٩٣

573-1908H

مقدمة الطبعة الثانية

على هذه الصفحات ، يتم لقاء صادق سعيد · بين الدين وحقوق الإنسان . .

والأحاديث المبثوثة هنا ، أذيع بعضها من الإذاعة المصرية بُعَيْد قيام ثورة ٢٣ يوليو ، حين طلب من الكاتب ذلك . . . والطبعة الجديدة التى نُقدمها الآن ، تضم خمسة أحاديث جديدة لم يسبق نشرها هى :

١ — الثروة القومية من شعائر الله ·

٢ — الاستعمار إلحاد ·

٣ — معاً ، حتى لا تنتحر البشرية .

٤ — الناس إخوة ·

٥ — فلنفسح الطريق للكلمة .

ومنذ ظهرت الطبعة الأولى « عام ١٩٥٣ » لم تظهر طبعات أخرى ، غير أن « وَرَّاقاً فى حلَب » طوّعت له نفسه الأمّارة ، فزيَّف طبعة لم يكلف نفسه حتى عناء تصحيحها · ولم يُقدِّر ما فى عمله هذا ، وسَطْوه على ما ليس له بحق ، من مسئولية وحساب ·

و « الدين فى خدمة الشعب » عنوان لوعى جرىء ، قاتَل تحت لوائه ، ولا يزال يقاتل ، رَعِيلٌ من الذين يؤمنون بالله · ويحترمون حقوق الإنسان ·

ونحن حين نفهم الدين فهما صادقا ، وندرك نواياه الحقة ، وأهدافه

البعيدة ، نعرف فى نفس اللحظة ، ولنفس السبب ، لماذا شقى الإنسان بالدين دهراً طويلاً . . .

قد يبدو هذا المنطق غريباً . . . أليس كذلك . . ؟ ؟ بيد أنه واضح ، وصحيح . . .

فالعصور التى تدحرج الإنسان فيها تحت وطأة شقاء دينى ، سواء فى المسيحية ، أو فى الإسلام . هى نفسها العصور التى جهل الناس فيها حقائق الدين ، ولم يُعانقوا أغراضه السامية ، ولم يبصروا رُؤَاه الصادقة.

لم يكن الدين هناك ، يوم كان الإنسان يشقى باسمه . . .

وإنما كانت خرافات وتعاليم صاغها فى مهارة تارة ، وفى سذاجة ، تارة أخرى ، جماعة من السَّدَنة والكهَّان . ثم ألبسوها مُسوح الدين وصاحوا فى الناس الساكين قولوا : سمعنا ، وأطعنا . .

فالحوازيق ، ومحاكم التفتيش ، وأفران الحريق . . . لم تكن من صنع المسيح والمسيحية . بل كانت إفراز بابوية منحرفة وتعاليم باطلة . .

والفتنة الكبرى ، والترف المسعور ، والسقوط الهائل . الذى انتاب المسلمين فى أزمان مختلفة ، لم يكن من صنع محمد ، والإسلام . . بل هو ثمرة الحرص ، والبغى ، والجهالة .

ولقد رأينا نحن فى عصرنا هذا . . كيف كانت آيات الله تُفسَّر ، وأحاديث رسوله تُعَبَّأ لخدمة فراعين الحكم ، وقوارين المال .

ولكن ، حين يخترق الضبابَ الجاثم شعاعاتٌ نافذة من الدين الخالص

المحجوب وراء السحب ، يبطل السِّحر ؛ ويُفْلس السَّاحرون .
ويُبصر الناس من الحقيقة جانبا ، فإذا الدين نصير للإنسان أى نصير .

ترى ، هل يأذن الله لهذه الكلمات أن تكون إحدى شُعاعات دينه الحق . . ؟ ؟

لعلَّ ذلك يكون ... وعندها ، نكون قد منحنا أنفسنا قدرة جديدة على مواجهة مشاكل الإنسان . تلك المشاكل التى لا تزال آخذة بيديه ، متشبثة بقدميه ، تعتاق زحفه العظيم نحو مستقبله العظيم

إن الحرية ، والأخاء ، والسلام . .

وإن المساواة ، والعدل ، والرخاء . .

وإن العلم ، والصحة ، والسعادة . .

كل أولئك ، كان فى دين الله وشِرْعته حقا للإنسان مسطوراً ، ومقدوراً .

ولقد ذهب الزمان الذى كان الدين فيه سَوْط عذاب يُسلط على ظهور الوُدعاء . والبسطاء . .

والذى كان الدين فيه مجرد تمائم وتعويذات . .

وأذن مُؤذن فى صوته كل رنين الحق وهُداه ، أنَّ الله خَلَق الناس أحرارا . وهذه مشيئته لهم ؛ فاستعبادهم إلحاد . .

وخَلَقهم ، ليسعدوا . وهذه مشيئته لهم ، فأشقاؤهم إلحاد . .

وخلقهم ، سادة مختارين ؛ وهذه مشيئته لهم ؛ فإكراههم إلحاد . .

وخلقهم ليعيشوا فى سلام ، وحُب . وهذه مشيئته لهم ؛ فتدمير حياتهم بالحرب إلحاد . وتشويهها بالبغضاء إلحاد .

وبعد ؛ فأن للبشرية اليوم شعـــارات جديدة تُصَوِّر حاجاتها ، ورُؤَاها

ومن هذه الشعارات يا صحاب : الدين للشعوب . ! !

حقوق الإنسان من حقوق الله

غايتنا من هذه الأحاديث أن نزود الوعى الجديد بمبررات دينية صادقة ونضع أمام عقل الشعب وقلبه ، المفاهيم الحقة لسكلمات السماء ، وغايتنا أيضاً، أن ننفى عن الدين عبث العابثين ، ولغو المبطلين ، حتى يفىء إليه أولئك الذين شردوا منه ، أو كادوا ... وحتى يأنس الناس إليه فى يقين وحب ... ويتخذوا منه فى رحلة الحياة رفيقا وعَضُدا .

وحديث الليلة يريد أن يكشف عن الزمالة الأبدية القائمة بين دين الله وحقوق الإنسان . ويريد أن يقيم الدليل على أن توقير الله ورعاية حقوقه ، يقتضيان توقير الإنسانية ورعاية حقوقها .

وإنكم لتعلمون ، أنه قد سار عبر التاريخ كثير من الفلسفات والمبادىء التى نادت بحقوق الإنسان وحرضت عليها ... ولكن من حق الدين عليكم أن تعلموا أنه فضلا عن الدور الباسل الضخم الذى قام به لتحرير الإنسان ، فأن أول وثيقة سجلت حقوق الإنسان كانت وثيقة دينية ... وإن الكتب المنزلة جميعها لتسجل هذه الحقيقة ويصورها القرآن الكريم فى وضوح حين يحدثنا عن قصة أبى البشر ... آدم .

والآن ، نستطيع أن نتخيل اللحظة الحاسمة ، فنرى آدم قادما من الغيب . حيث كان فى تلافيفه المغيبة مجرد مشيئة تنتظر التنفيذ . .

وها هو ذا قد وقف بين يدى ربه يؤدى تحية القدوم ... ويتقبلها ربه بقبول حسن ... ويفطن آدم إلى أن أولى رسالات الله إلى البشر ممثلين فى أبيهم ، على وشك أن تلقى ، فيلقى سمعه ويفتح فؤاده ... وتشرق كلمات الله فاذا هى فى إيجاز وحسم وثيقة بحقوق هذا الإنسان وعهد يكتبه الله على نفسه حيالها .

يا آدم . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ... وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ...

وهكذا تلقى أبو البشر أول تأمين ضد العوز . فلا عرى ولا جوع ... وعندما دقّت ساعة الرحيل إلى الأرض كان وعى آدم لا يَزال مفعما بهذه الحقوق ... بيد أنها قبل اليوم كانت مكفولة بقدرة خارجة عنه ... أما اليوم ، وفى الأرض المجهولة التى ولى وجهه شطرها ؛ فإن عليه وحده صيانة هذه الحقوق . ولكأنما أراد الله أن يهيئه لما سيعانيه فى سبيلها من صراع ؛ فقال : اهبطوا ، . بعضكم لبعض عدو ...

وصدق نذير السماء ... فرق من صفوف الإنسانية شُذّاذ تقمصت أجسادهم طبائع الوحوش وضراوة الذئاب ، وأبوا إلا علوا فى الأرض وفساداً ... فهب الخيرون لحماية التراث والنهوض بالأمانة ... هنالك نشب الصراع المشروع من أجل حق الإنسان فى أن يظل إنسانا ...

لا يجوع ... وسواعده هى التى تنبت الحب .

ولا يعرى ... وأنامله هى التى تنسج الثوب .

ولا يستعبد ... وقد ولد حراً

والآن . ندع الموكب المصطرع يمضى لمستقر له . ربما نلقاه بعد حين . وتعالوا نعرف كيف دعم الدين حقوق الإنسان ، ولماذا ... ؟

أما كيف ، فقد سلك الدين لذلك سبلا كثيرة . لكن أروع وسائله وأذكاها تتمثل فى مناداته بمبدأ التوحيد ...

لقد مضى يحطم بالتوحيد كل حاجز يقف بين الإنسان وبارئه . ويدحرج على الأرض أولئك الأرباب الكاذبين الذين انتفخت أوداجهم بالغرور والظلم ، يزعمون أنهم ظلال الله فى الأرض . وهم سعير يتلظى ، وهجير يضطرم .

نعم . إن إعلان الأله الواحد ، كان الضربة القاصمة التى حطمت عن الإنسان أغلاله ، ومزقت قيوده ! وهوت بالمتألهين عن عروشهم الملحدة ... وقيل للإنسان يومئذ ... قيل للرجل العادى ...

أنت وحدك ظل الله فى الأرض ... أنت خليفته ... أنت نفخة من روحه ... أنت شهبة من نوره .

انهض ، هذا الكون لك ... والشمس تجرى من أجلك ... ليس بينك وبين الله وسطاء ... استعن بالله ، ولا تعجز ... !

ومضى رسل الله عليهم السلام يخاطبون بغى البغاة ، وضعف المستضعفين ويعلنون فى قوة وإصرار أن لُباب رسالاتهم تحرير الإنسان ونشر لوائه .

وقف إشعياء يقول :

« إن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسانى لأعصب منكسرى القلب ... لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالانطلاق » .

وصاح عيسى فى المساكين :

— « الحق أقول لكم : إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله » ...

فماذا كان يعنى بالولاده من فوق . . ؟ ؟

كان يعنى أن يريقوا فى أنفسهم الخانعة كل مشاعر العزة والسمو والاعتداد ... حتى تترعرع من ذبول ، وتنتعش من خمول ، وتولد من علياء

وأراد أن يؤكد المعنى الذى سلف . وهو ربط البشرية بربها ربطا وثيقا لا يتخلله شفيع ولا وسيط . فخاطب تلامذته قائلا :

— « سيسلمونكم إلى مجالسهم ، وتجلدون فى مجامعهم ، وتساقون أمام الولاة والملوك من أجلى ؛ فمتى أسلموكم فلا تهتموا بما يقولون ، فسيوحى إليكم ما تنطقون . لأنكم لستم المتكلمين ، بل روح الله هو الذى يتكلم فيكم » .

وجاء دور محمد ، فبالغ ذروة التحريض على التحرر والعزة . وأحدقت تعاليمه بالطغيان من كل مكان . وانطلق يجاجـــل بوحى الله ...

« الناس سواسية كأسنان المشط » .

لا نبالة للدم ... ولا امتياز بالوراثة ... ولا كرامة بمال أو نسب ... إن

أكرمكم عند الله أتقاكم ... ثم نحا بدعوة التحرير نحواً مدمدما ؛ فقال يخاطب أصحابه ويخاطب الأجيال :

— إذا ذهب كسرى فلا كسروية بعده ... وإذا ذهب قيصر فلا قيصرية بعده ... ولقد أظلكم من الله خير جديد ... نبوة ، ورحمة ... !

لكأنه اليوم معنا ... ولكأنه يحرضنا ويعنينا .

أرأيتم أيها السادة كيف كان رسل الله يتكلمون ؟

أرأيتم هذه الصورة العابرة للأمانة التى حملوها فى مشقة وكَبَد ، والجهد الذى بذلوه من أجل الإنسان وحقوق الإنسان ... ؟

إذن ؛ فاسمعوا لماذا أمرهم ربهم أن يحرروا الناس وينفضوا عنهم كل مذلة وعار .

— لقد اختار الله الإنسان ليعمر هذا الكوكب الذى نعيش على ظهره ونضرب فى مناكبه . وما كان له وهو عان موثق ذليل أن يجد لمهمته سبيلا ... ولو أنه قدر لنا أن نرى الأرض قبل أن يفد الإنسان إليها ... وكيف أحالها من عماء موحش إلى تحفة تزدان بآثار عقله وما عملت يداه إذن لآمنا فى بداهة وتسليم بأنه قبس من الأله .

ولقد اختاره أيضا ليكون خليفته فى الأرض . ومنفذا لمشيئته عليها . وأعلن ذلك فى كتابه الكريم حين قال سبحانه : إنى جاعل فى الأرض خليفة ... وما دام ذلك كذلك ؛ فلا بد أن يتاح لهذا الإنسان من فرص

الكرامة والعزة والسيادة ، ما يجعله أهلا لتمثيل إله اتصف بالعزة والكبرياء والسيادة ...

من أجل ذلك ، جئنا نعلن فى يقين وصدق · أن حقوق الإنسان من حقوق الله ·

ومن أجل ذلك أيضا دعى الله البشر ليرتفعوا؛ فقال : « كونوا ربانيين ».

ودعا الرسول عليه السلام دعوة مماثلة فقال : « تخلقوا بأخلاق الله . إن ربى على صراط مستقيم » ·

وقد يسأل سائل : كيف يعنى الدين بحقوق الإنسان كل هذه العناية ثم لا يلغى الرق بآية حاسمة ؟

والجواب ، أن الدين يؤثر التطور على الطفرة ، وفى أيام نزوله وإهلاله كان الرق يمثل فى النظام الاجتماعى « عقدة حيوية » وحاجة مُلحَّة ، ولم يكن من الممكن لأكثر من سبب أن يُجتث ويحذف · فنادى الدين بحق العبيد فى الحرية والحياة ، وشرع مبدأ العتق ونظمه وحرض عليه · ثم ضاعف حقوق الأرقاء على أسيادهم حتى يدفعهم العجز عن الوفاء بها إلى إطلاق سراحهم ·

لقد كانت أثينا مهد الحرية · وطالما تغنى شعراؤها بحرية الرقيق ، ومع ذلك عجزت أثينا عن إلغائه لأن دور الألغاء فى التطور لم يكن قد أزف وحان ... ورغم استمرار هذه الدواعى فقد لعب الدين دوراً إيجابيا فى تحريرهم وفى التعجيل بعصر التسريح المطلق والإلغاء التام ·

لقد وقف الرسول عليه السلام يمحو عنهم اسم العبودية : فقال : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى . وليقل فتاى وفتاتى . وقال : هم إخوانكم فأطعموهم مما تطعمون . وألبسوهم مما تلبسون » .

أيها السادة . هذا حديث سريع ينبىء عن المنزلة التي يريد الله للانسان أن يتبوأها . فامضوا نحوها فى غير تهيب أو وجل ، وانضوا عن أنفسكم كل إحساس بالنقص أو عجز عن اختيار المصير .

ليس فى دين الله إقطاع

قبل البدء فى الحديث ؛ تعالوا نجب معا على هذا السؤال :

مَن مِن رسل الله عليهم السلام يقبل ضميره الحر التقى أن يحمل وزر تجويع الجماهير الكادحة ؟

ومن من رسل الله عليهم السلام يسبغ ضميره الحر التقى أن تملك الأرض فئة باغية عاطلة ، وتملك مع الأرض الماء والهواء والبشر ... تجبى إليها ثمرات كل شىء . ويحرم المجهدون فى سبيلها من كل شىء .

من . . ؟

أهو موسى ؟

لقد كان لباب رسالة موسى أن يقوض الاستبداد فى شخص فرعون ويحطم الاستغلال فى شخص قارون . ويمن بالحرية على الذين استضعفوا فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

أهو عيسى ؟

لقد نظر عيسى ذات يوم إلى الحقول الباذخة التى زرعها الحفاة للطغاة واختلج رأسه فى غيظ وقال : إنها حقول منجوسة . وإن صياح الحصادين قد دخل إلى أذنى رب الجنود . . !

أم هو محمد . ؟

ولكن محمدا هو الذى جاء يحمل من لَدُنْ ربه وثيقة زاكية تخبر الناس أن الله سخر لهم ما فى السموات والأرض جميعا منه . وتصرخ فى وجوه الكانزين أن من احتكر طعام قوم أربعين يوما ؛ فقد برئت منه ذمة الله ورسوله . !

إذن ، ليس فى هؤلاء الثلاثة المرسلين ولا فى إخوانهم الذين سبقوهم بأيمان من يسيغ هذا الرجس .

وإذن ، فليس فى دين الله إقطاع .

ولكى نزداد اقتناعا بهذه الحقيقة علينا أن نعرف ما هو الإقطاع .

والإقطاع — ياصحاب — هو سيادة الغرور على الحق .

هو سيطرة البغى على العدل .

هو استعلاء الأنانية على الواجب .

بدأ فى نماذجه البدائية يوم انتفضت فى الإنسان القديم غرائز الشر .. ووضع الكهنة دين الناس يومئذ فى خدمة الملوك وذهبوا يقنعون الجماهير أن الأرض التى يزرعونها ليست لهم ، وإنما هى للآلهة الجاثمة فى المعابد والآلهة وهبتها للملوك ... والملوك يهبون بعضها لمن يشاءون من الخدم والموظفين .

ثم أخذ الإقطاع شكلا طاغيا فى أعقاب انحلال الامبراطورية الرومانية يوم رأى المستضعفون أنفسهم مثلوى العزم مجردين من القوة والحول

فلاذوا بالسادة الأقوياء ليحرسوهم من سطو الغزاة وقطاع الطريق ... فرفض السادة حمايتهم إلا إذا جعلوا أموالهم وأنفسهم وأهلهم ملكا لهم.. وهكذا بين عشية وضحاها ، وبكلمة واحدة من أمراء الإقطاع ، انقلب الأحرار عبيدا ؛ يبنون مالا يسكنون، ويزرعون مالا يأكلون ..!

ومضى الزمن ينادى بعضه بعضا . . . فإذا الإقطاع ينقرض ويبيد ، وإذا حقوق الإنسان تزحف فتحتل مواقعه وحصونه ويتحول الرعايا إلى أمة . . والعصابة إلى دولة .

ولكن سوء الحظ أغرى فلول الإقطاع المنهزمة بالمكث فى هذه الرقعة المظلومة من الأرض — مصر ، وما حولها . . . إذ قامت نظم من الحكم أرادت مشيئتها السامية أن تكون الوارث الشرعى لذلك الحيوان المنقرض البائد — الإقطاع ...

وإذا كنا لا نطيق بقاء هذا الكابوس ، فليس فقط لأنه يحرمنا اللقمة ويضربنا بالجوع والمرض . . . بل لأنه يذكرنا بالشقوة التى كابدها آباء لنا كرام سقطوا تحت مطارق بغيه وأهواله . . ويذكرنا بالغزاة الذين تطفلوا على بلادنا وساموها الخسف والعذاب .

نعم ، يذكرنا بأن السلطان سليمان التركى عندما تولى الخلافة بعد أبيه سليم أعلن فى (فرمان وقح) أنه « المالك الحر لجميع أرض مصر » .

ويذكرنا بيوم آخر جمعت فيه وثائق امتلاك الأرض من آبائنا وأحرقت ثم ذريت فى الهواء .

ويذكرنا بيوم ثالث حين قسم إسماعيل الأرض إلى تفاتيش ومضى

يوزعها فى سخاء لم يكلفه شيئا ، على خدم القصور وأغوات البلاط تاركا أصحابها الحقيقيين يأكلون الجوع ويلبسون العراء ... !

تصوروا هذا الوضع الشاذ ، ثم انظروا ببداهة . هل يقبله دين ؟

لقد كاد الحق يلتبس على كثيرين يوم كان المتحدثون الرسميون باسم الإسلام يتجشأون فى كل يوم فتوى تشحذ ضراوة الإقطاع ، وتمكن قبضته الآثمة من أعناق الملايين التعسة ، وتضفى على الظلم الاجتماعى ألوانا من المشروعية والتقديس .

أما اليوم ، فقد دقت ساعة الخلاص معلنة وفاة الإقطاع وتسريح كهنته .

واليوم ، يعلم الناس جميعا أن الله لم يكذبهم وعده ، وأن الدين لم يساهم قط فى الظلم الذى كان يؤودهم ، وأنه أنزل من السماء ليكون فى خدمتهم هم ، وليس فى خدمة الفراعين أو القوارين .

سادتى ... إن مسافة الخلف بين الدين والإقطاع بعيدة جدا .

فالدين ، عدل وإخاء ، والإقطاع جور وشقاق .

الدين ، حرية وسلام ، والإقطاع عبودية وعدوان .

الدين ، كدّ وعمل ، والإقطاع تبطل ونهب .

الدين ، سياج للفضيلة ، والإقطاع تحدٍّ لكل فضيلة .

الدين ، يقول للناس ليس فوقكم سوى الله ، والاقطاع يقول للناس أنا ربكم الأعلى .

الدين ، صيحة منقذة ؛ والاقطاع وطأة مميتة .

الدين ، يقول للناس : خذوا ، والإقطاع يقول للناس . هاتوا .

فكيف يلتقيان : ؟؟

وإنه لظلم للمنطق وللحق أن نعتبر الإصلاح فى مصر ملكية ، فالحقيقة أنه احتكار ، والفارق بين الملكية والاحتكار كالفارق بين رجل يحمل فى يده قرشا وآخر يحمل مشرطا ينهب به جيوب الناس . . . وإذا سلمنا جدلا بأن الإقطاع ملكية ، فلن يكون فى هذا ما يبرر بقاءه . فالدين يعطى الحاكم الصالح حق توجيه هذه الملكية نحو صالح الأمة واستيفاء ضروراتها ، توجيها ينتظم التحديد والتأميم معا . .

أتظنون أن الله يلعن من يحتكر حفنات من القمح ... ثم يرضى عن احتكار الأرض التى تنبت القمح ...

وإذا سئلنا لماذا لم يُصَفِّ الرسول الاقطاع ويوزع التفاتيش ... نجيب سائلين — ولماذا لم يركب الرسول القاطرة البخارية ...؟!!

إن الرسول لم يفعل الثانية لعدم وجود قاطرة ، وهو أيضا لم يوزع التفاتيش لأنه لم يكن فى جزيرة العرب تفاتيش... وحسبه — عليه السلام — ما ترك من المبادىء الحرة والتوجيهات الحاسمة ... فهو القائل :

«إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو ، أو قلّ فى أيديهم الطعام؛ جمعوا ما عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه فيما بينهم . فهم منى وأنا منهم . .»

وهذه الفقرة الأخيرة — فهم منى وأنا منهم — تزكية وتأييد للنهج الذى انتهجه الأشعريون .

وهو الذى بلّغنا عن الله هذه الوثيقة الفاصلة « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه . أن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وإنكم لتلاحظون أن الأية الكريمة تضع الأرض تجاه السماء . وكأنها تقول لنا : هل يستطيع أحد من الناس كائنا ما كان جاهه وثراؤه ، أن يحتكر لنفسه ولأبنائه من بعده ؛ ضوء القمر وحرارة الشمس ، والسحاب الثقال ... ؟ . — إن منافع الأرض كمنافع السماء ، لاينبغى لعصابة من الاقطاعيين أن تحتكرها وتذهب بخيرها ...

على أن أمامنا صحابيا جليلا لم يكد يلمح فاشية الاقطاع تفشو بعد فتح الإسلام لبعض البلاد الزراعية حتى اندفع كالرصاص المقذوف يكافح الاقطاعيين ويتحداهم ...

ذلكم هو أبو ذر العظيم . . . ولقد حملت الصحف منذ عامين فتوى دينية ، للمتحدثين الرسميين باسم الدين ... نعتوا فيها أبا ذر بالفوضوية والشغب ... كى يضائلوا من قيمة العمل الجليل الذى قاوم به الاقطاع ...

ولكن اسمعوا أيها السادة ... إن فى نبأ أبى ذر مايدل على أن الرسول عليه السلام يقر سعيه ومذهبه . فلقد قال له ذات يوم قبل وفاته .

« يا أبا ذر ... إنك تعيش وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ... وستلق بعدى أذى كثيراً فاصبر حتى تلقانى على الحوض .. »

قال أبو ذر ... يا رسول الله .. هذا الأذى . فى طاعة أم فى معصية .؟

فأجابه الرسول . . وعلى فمه ابتسامة كضوء الفجر ... بل فى طاعة

يا أبا ذر : وهكذا تنبأ الرسول بنضال صاحبه ووصف موضوع هذا النضال بأنه طاعة وحق .

سيداتى ... سادتى ... ليس الدين فى استنكاره للاقطاع إلا استجابة حية لأمانى البشر وتصويراً صادقاً لطبائع الأشياء ...

فطبائع الأشياء تتطلب أن تقوم فى الناس حكومة ترعاهم .. ومن المحال أن تجتمع فى بلد ما ، حكومة وإقطـــاع .. أن وجود أحدهما يعرقل وجود الآخر . ذلك أن غاية الحكومة إقامة العدل والأمن والمساواة .. والإقطاع بطبيعته وغرائزه ضد العدل والأمن والمساواة . . وإذن ، فللدولة — أى دولة — أن تختار بين الحكومة والإقطاع ... ولن يجتمع الاثنان فى وطن إلا إذا اجتمع الثلج والنار فى إناء . . ثم لم يطغ أحدهما على الآخر .. ولقد رأيتم كيف طغى الاقطاع على الحكم فى بلادنا حتى تبّر كل شىء تتبيرا ، ورد روحنا الحى ترابا فى تراب ...

أيها السادة .. تحيتى لكم .. وعما قريب إن شاء الله سيقول بعضنا لبعض فى حبور وجذل : ، . كان فى مصر إقطاع .

حق الشعب فى أن يحكم نفسه ، بنفسه ، لنفسه

عندما تريد أمة أن تسترد سيادتها وتنفض عن نفسها حكم الفرد ، تسمعها تنادى : أريد الديموقراطية ...

والديموقراطية كما يعرفونها هى : أن يحكم الشعب نفسه ، بنفسه ، لنفسه.

أن تنهض الحكومة من صفوف الشعب . وأن تجىء ثمرة اختيار حر يمارسه الشعب . وأن يكون سلوكها من الجد والاستقامة بحيث تصير مغانم الحكم جميعها إلى الشعب .

والحكم الذى يستكمل هذه العناصر ، هو وحده الجدير بالبقاء فالبشر ليسوا ضيعة تورث ؟ ولا سلعة تباع ، ولا قطيعا يسام ... ولقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ... ويجب أن يظلوا كذلك . وما دامت مقتضيات الاجتماع اليوم تتطلب وجود حكومة تسوس الناس وترعاهم ، فلا بد من أن تجىء هذه الحكومة وليدة رغبة صادقة تعبر عن ثقة الشعب بها ، واطمئنانه إليها ، وتعاضده معها . خاصة وقد نزل المجتمع عن جزء من حريته بخدمته للدولة نظير قيامها ، والدين يبارك حكم الشعب نفسه بنفسه ، لنفسه ، ويهيىء له سبيل ذلك فى عزم أكيد .

ولما كان الإقطاع ، والملكية المطلقة هما الحاجز الشاهق الذى يحول بين الشعب وحريته . فقد أعمل الدين معاوله لدكهما وتقويضهما .

ولقد حدثتكم فى الحلقة الأولى . كيف طارد الدين الإقطاع وكافحه ، والليلة ترون ، كيف ازدرى الملكية المطلقة وصارعها ، حين رآها تقف حجر عثرة ضد أمانى البشر ، وحقهم فى أن يختاروا حكامهم بأنفسهم لا أن يفرضوا عليهم بشهادة الميلاد ...

فحين جاوز أحد فراعين مصر القدماء حدوده واستعلى بجبروته على الناس يقتل أبناءهم ، ويستحى نساءهم ... ويقول لهم فى عطرسة وبغى .. أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ...

عندما حدث ذلك اصطنع الله موسى ، وقال له : « اذهب إلى فرعون ، إنه طغى » ... وهكذا كان مجرد طغيان فرعون سببا كافيا لأرسال رسول يزجره ويرد الحرية المسلوبة إلى ذويها .

وجاء موسى . وقام صراع طويل بين النبوة الهادية والملكية المطلقة وانتهى الصراع أخيراً عند شاطىء البحر ... حيث ابتلع اليم فرعون ثم بصقه على الشاطىء ليكون لمن خلفه آية ومثلا ..

إن تقدير الدين لديمقراطية الحكم لايتمثل فقط فى حثه عليها حين يقول . «وشاورهم فى الأمر ، وأمرهم شورى بينهم» ، وقول الرسول لصاحبه أبى بكر وعمر .« لو ذهبتما لرأى ماخالفتكما» ، بل يتمثل قبل ذلك وبعد ذلك فى عدم ارتياحه بل فى كراهيته للملكية المطلقة باعتبارها مظهرا خطيرا لسلب سلطان الشعب وإلغاء إرادته ...

وإنكم لترون القرآن الكريم لايذكر الملوك المستبدين بخير أبدا ... فهو تارة يتهمهم بالسلب على لسان الخضر فيقول : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » ...

وتارة أخرى يتهمهم بالفساد والبطش على لسان بلقيس فيقول : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » .

وقول القرآن : « إذا دخلوا » ... إيماء واضح إلى أن الملكية المطلقة كثيراً ماتكون بضاعة مجلوبة تغزو البلاد وتفرض عليها سلطانها .

ومرة ثالثة يتهمها بالتبذخ والترف . فقد دخل عمر يوما على رسول الله عليه السلام فألفى الحصير قد أثر فى جنبه فبكى وقال : ألا تتخذ لك فراشاً لينا يارسول الله . فأجابه الرسول : ماذا ياعمر ... أتظنها كسروية ؟ إنها نبوة ، لا ملك ...

وهكذا ينهض الدين فى وجه هذا الطراز الغاشم من الحكم ... لماذا ؟ لأنه تعويق آثم لتقدم الحياة ... وأنانية جاهلة تسخر الناس للعمل ضد أنفسهم وتضع القيم السامية فى خدمة الغرور والباطل ...

والدين فى هذا النهج ينسجم مع الفطرة انسجاما وطيدا ... هذه الفطرة التى أوحت إلى رواد الحضارة جميعهم أن يهتفوا بأن الأمة مصدر السلطان. وأن المؤهل الوحيد للحاكم — أى حاكم — هو ثقة الشعب ، فإذا اختفى هذا المؤهل اختفى الحاكم لفوره وساعته .

وإمعانا من الدين فى تزكية حكومة الشعب ؛ ضرب رسول الله المثل

بنفسه ، وترك للناس من بعده حق اختيار رائدهم الجـــديد . دون أن يفرضه عليهم .

وكذلك فعل عمر ... فحين سأله أصحابه أن يستخلف عليهم أحدا . رفض وقال : « مالى ولأوزاركم . أحملها حيا وميتا »..؟!

ثم رفض أن يكون لابنه عبد الله شئ من الأمر . وقال : حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويُسأل عن الأمة . ظلم فيها . أم عدل ... ؟!

ولا تزال كلمته — رضى الله عنه — شعارا مرتفع الرنين فى ضمير الزمن تلك الكلمة التى زجر بها واحدا من كبار ولاته فقال : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ... ؟ »

على أن أبرّ الوسائل التى يمكن الدين بها لحكم الشعب يتمثل فى محاربته كل ألوان التأثير على الشعب وفى تعرية الحكم من جميع مظاهر الأبهة التى تجعله فى أعين الناس زخرفا مرغوبا .

ففيما يتصل بالتأثير على الناس يحرم الرشوة ويلعن مانحها وآخذها . ويعتبر شراء الذمم كبرى الكبائر والموبقات .. ويحرم على الناس شهادة الزور . ويترك لأئمة الدين أن يبينوا للناس أن أعطاء الصوت فى الانتخابات شهادة بصلاحية المرشح لتحمل مسئوليات وظيفته كنائب . فإذا لم تصادف هذه الشهادة أهلها .. كانت زوراً .. وإثما .. وضلالا .

وفيما يتصل بتعرية الحكم من مظاهر الزخرف والإغراء . نجده يطالب الحاكم بألا يتميز عن الناس فى شئ .. وألا يجاوز مرتبه حدود كفايته .. وألا يبيت شبعان ، وفى الأمة جائع واحد ... وألا يتخذ له حاجبا يصد

المظلومين عن بابه ... وألا يقبل هدية مهما تكن ، تأتيه وهو يمارس الحكم بين الناس. ويعلن الرسول فى حديثه . أن الحكم أمانة شاقة تفضى بأصحابها إلى الشقاء والخزى إلا إذا أخذوها بحقها وأدوا ماعليهم فيها .

اسمعوه يقول : « ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم معلقة بالثريا يدلّون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا » .. !!...

بل وأكثر من ذلك نجد الدين يحرم على الناس التهافت على الحكم ، وينزع ثقته من الذين يطلبونه ويسعون إليه .

ذهب رجل إلى رسول الله عليه السلام يسأله أن يوليه أمارة فقال له الرسول : « أنا والله لانولى هذا الأمر أحداً يسأله ، أو أحداً يحرص عليه .. » ..

وليس معنى هذه النصوص التى سردناها أن تصطبغ الحكومة بصبغة دينية خاصة .. فالأسلام إذ يزكى حكومة الشورى يترك للناس حرية اختيار وسائلها وتحديد غاياتها ، ورسم مناهجها ، ووضع دستورها . .

أيها السادة : هكذا يريد الله لخلقه أن يعيشوا سادة فى ظلال حكومات يختارونها ويحسنون اختيارها . فلا تفرطوا فيما لكم من حق ، ولاتختاروا من لايرعى لكم حرمة ولايخشى فيكم ذمة .

أيها السادة .

ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق .

حق الشعب فى المعارضة ، والمقاومة

لا أعرف فارقا — أى فارق — بين حق الشعب فى المعارضة ، وحقه فى التنفس . فكلاهما عملية لابد منها لتأمين الوجود ، واستمرار الحياة ..

ولقد أودع الله فى كل إنسان قدرة على التميز . وجعل له عقلا يلهمه ويهديه .

وتفاوت العقول يقتضى بالبداهة تفاوت الآراء ...

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه وهو يُعدّهم لحياة لها قيمة ، تركهم يدركون بقوة العزم والجهد والتفاعل والتجربة ، الغاية المنشودة من خلقهم ، ألا وهى الصعود بإنسانيتهم إلى ذروة الكمال الميسور .

والقيمة الأخلاقية لحياتنا تتمثل أولا وقبل كل شئ فى حبنا الحق . واستجابتنا له ...

والذين يحبون أنفسهم أكثر مما يحبون الحق . هم وحدهم الذين ينكرون على الناس إبداء آرائهم ، والتعبير عن أنفسهم ...

وهؤلاء يحاربهم الدين بنفس العزم الذى يحارب به الكفر ... ويرى فيهم تعبئة ملحدة ضد التقدم والارتقاء ...

وإننا لنستطيع أن نقول : إن رسل الله جميعا بدأوا زعماء معارضة ، وقادة مقاومة؛ وحين يقص الله علينا من أنبائهم ، يفتح أعيننا على الظروف التى اقتضت إرسالهم ... وهى فى مجموعها تعطيهم صورة الثائر المنقذ الذى جاء ليقول « لا » ... وليقود الجماهير ضد الجهل وضد الظلم ، وضد الانحطاط . حتى لو كان الجهل جهلها .. والظلم ظلمها .. والانحطاط انحطاطها ...

فهذا إبراهيم — عليه السلام — يسأل سادة قومه — «ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ... ؟ »

قالوا : «وجدنا آباءنا لها عابدين» ... !

قال : «لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين» ...

وحين تبلغ المعارضة مداها دون أن تردع قوى التعصب والعناد ، ينتقل إبراهيم إلى طور آخر من أطوار الصراع — هو طور المقاومة ، فيصرخ بين ظهرانيهم .

— «والله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين» ... ثم يحمل معوله وينهال عليها حتى يجعلها جُذاذا ...

وحين يساق إلى النار التى أججوها لأحراقه لا يجزع ولا يُروَّع ... بل يتحداهم فى سخرية ويقول : « أفٍّ لكم ، ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون» ... ؟ ؟

أليس هذا مشهدا فذا يجعل مبدأ المعارضة والمقاومة شعيرة من شعائر الله؟

وهذا نوح ينادى كبراء قومه ... «اتقوا الله ، وأطيعون» ...

فيجيبونه : « ما نراك إلا بشرا مثلنا ... وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا » ، يعنون الجماهير الفقيرة الكادحة ...

فيجيبهم : «إن تسخروا منا ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون » .. ويفتح الله بينه وبينهم ويهبط إلى الأرض بسلام من ربه وبركات عليه وعلى أمم ممن معه ، ويدهم خصومه الموج ليصيروا من المغرقين!! .

وذلكم شعيب يتحدى الذمم الناهبة المعطنة فينادى أصحابها .

« أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثَوا فى الأرض مفسدين» ..

فيجيبونه : «إنما أنت من المسحَّرين . ما أنت إلا بشر مثلنا ، وأن نظنك لمن الكاذبين » .

فيرد عليهم فى ثقة بالمصير ... « اعملوا على مكانتكم إنى عامل ؛ فسوف تعلمون من يأتيه عزاب يخزيه ومن هو كاذب . وارتقبوا إنى معكم رقيب» .

وهكذا تتوالى مشاهد التطور والتحرر ، تقاوم البلى والعفن ، ويقوم بها فى مشقة فادحة وكبد أليم ، أنبياء الله المصطفون ورسله الأخيار .

وجاء دور محمد ، فشحذ نزعة المعارضة وإرادة المقاومة وشد زناديهما إلى أقصاه ... وقف يتلو على الناس آى الله فيقول ، وكأنه يرتل نشيداً ثورياً :

«ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء

والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً» ... ؟

وليس ذلك فحسب ، بل إن الرسول عليه السلام ليبشر بفلسفة جديدة فى منتهى الروعة والإثارة فهو لا يرى المقاومة عملا من أعمال التقويض والهدم بل عملا أعمال البناء والانتصار للحياة ... اسمعوه يقول : انصر أخاك ظالما، أومظلوما، فاذا سئل كيف ننصره ظالما؟ أجاب: ردوه عن ظلمه. وهكذا وضع : انصر مكان قاوم ... واعتبر المقاومة انتصارا للأهداف الإنسانية الخيرة ... وشىء آخر . فهو يعتبر المظلوم الذى يصبر على الضيم ، ظالما يحمل من الأوزار مثلما يحمل ظالمه سواء بسواء . ويبشر المستضعفين الذين يعالجون كبراءهم ويخنعون لهم بمصير أليم !

وينقل عن ربه صورة للفريقين إذ يقوم بينهما حوار فاشل يلقى كل منهما تبعة الحيف على الآخر وينتهى بضراعة الذين أقاموا على الضيم قائلين :

«ربنا أنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب وألعنهم لعنا كبيراً» .

فيجيبهم الله فى حزم عادل ...

— لكل ضعف ... أى لكم عذاب ، ولهم عذاب ...

ولقد كان سلوك الرسول فى تقبل النقد والمعارضة عجبا ، وأكثر من عجب ... انظروا ...

وقف يوما يوزع مال الله على الناس . وأخذ أعرابى نصيبه فاستقله ...

ثم مد يده بالسوء وجذب الرسول من طوق ثوبه جذبا عنيفا وقال :

يا محمد . زدنى فليس المال مالك ولا مال أبيك ...

واستل عمر سيفه صائحا ... دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

فابتسم الرسول فى حنان رطيب وقال :

— دعه ياعمر ... إن لصاحب الحق مقالا .

وكان عليه السلام يقول ... إذا عجزت أمتى عن أن تقول للظالم . ، يا ظالم ... فقد تُودِّع منها .

أيها السادة ... عارضوا الاستبداد . أينما يكون ... وإذا لم تجدوا المعارضه ؛ فقاوموه ... وأعلموا أن يد الله فى أيديكم . تميط عنكم العجز وتحسم الهوان ...

حق الشعب فى الحرية، والسلام

حين أتحدث عن الحريه والسلام . يغمرنى إحساس عميق بجلال الإنسانية وروعة كفاحها ..

وأتصور الأجيال التى ذهبت فى الدهر الأول ...

أتصورها وهى تخوض معارك الهول ، وتقاتل من أجل حريتها وسلامها وحوش الغاب ، ووحوش البشر ، وقسوة الطبيعة .. وتذهب فريسة حروب طائشة آثمة ..

أتصور الذين نعتهم التاريخ بأنهم كانوا يُسخَّرون لصيد الضفادع من الغدران كى لاتقلق الأمير الأقطاعى فى نومه !!

ويجلدون بالسياط إذا نهروا كلاب سادتهم التى تخرب حقولهم ...

ويساقون إلى الموت إذا عارضوا رغبة الملك فى افتراع بناتهم والسطو على زوجاتهم ...

أتصور المشاهد الدامية ، وأسأل نفسى : كم من القرون المليئة بالمشقة والفزع والهول ، قطعتها الإنسانية مشيا على الشوك ، وعلى الجليد ، وعلى الأشلاء حتى جعلت الإنسان سيد نفسه ، ورفعت فوق حطام قاتليه ـ لواءه

المفقود بالكرامة والعزة ، وشادت حضارة فاتنة سامقة مطردة نحو التفوق والكمال ، وهيأت له وسائل العيش فى موادعة وحب وسلام ؟ ؟

ثم أعود فأقتنع بأنه ليس ثمت ما هو أكثر ضلالا وإثما من تلك المحاولات الفاجرة التى تبذل لعرقلة الموكب الزاحف . ورده على أعقابه حيث الحرب ، والظلم ، والانحطاط ...

وأيم وجهى شطر الدين لأنظر . هل هو مع الحرية أم عليها — وهل يؤازر التقدم الهادف أم الرجعية الباهاء . . . ؟ وهل هو صديق السلام أم صديق للحرب . . . فإذا هو — يا أصدقائى — نصير متحمس للحرية ، وللتقدم ، وللسلام .

ولقد رأيتم من أحاديثنا السابقة ، كيف يقف الدين مع الحريات السياسية للناس فيزكى حق الشعب فى اختيار حاكمه اختياراً لا يشوبه ضغط ولا إكراه ، ويزكى حقه فى تقويم الحاكم وعزله إذا انحرف وجار ... ويمكن الإنسان من ثمرة عمله وإنتاج يده تمكينا ينفى عنه التسخير والاستغلال ...

وها نحن أولاء ، نبصره فى إعجاب شديد وهو يدعو لحرية النقد ويحرض عليها .

وحين يسخر سخرية فاضحة من الذين يقولون « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

وحين ينادى بحرية المعارضة ، فيقول : « إذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب » ..!!!

وحين يبارك حرية الفكر وانطلاقه ، فيقول الله للناس ؟ « سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » ... ويقول الرسول لمعاذ :

« بم تحكم إذا عرضت لك قضية ليست في كتاب الله ولا في سنة رسوله » حتى إذا أجاب معاذ قائلا ـ أجتهد رأيي لا آلو .. يضمه الرسول إلى صدره وهو يقول : « الحمد لله ... » ولما استعمل أصحابه عقولهم استعمالا أثار بعض الشك في نفوسهم ذهبوا إليه « عليه السلام » في تفزع وأسى ، فإذا هو يقول لهم في تهلل وبشر :

— لاتجزعوا ، هذا صريح الإيمان . نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى .. ؟

قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ... وهكذا ، وقبل أن يظهر ديكارت وفلسفته بقرون بعيدة احترم ابن عبد الله العقل ، وجعل الشك طريقا إلى المعرفة ، ومنفذاً إلى اليقين .

أما السلام فبينه وبين الدين رحم لاتنقطع أبدا ...

هذا هو المسيح يقول : إني أريد رحمة لاذبيحه ...

« من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ... »

« طوبى للوديعاء . لأنهم يرثون الأرض .. . طوبى للرحماء ، لأنهم يرحمون ... طوبى لصانعي السلام ... لأنهم أبناء الله يدعون ... » !!

وهذا هو محمد يسأل عن أفضل الأعمال فيجيب . بذل السلام للعالم ... ويدمدم على دعاة الحرب والدمار بتعاليمه المضيئة التي تجعل السلام عقيدة ...

اسمعوه يقول : «والذى نفسى بيده لاتؤمنوا حتى تحابّوا ... ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم ... ، ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة ؟ إصلاح ذات البين» ...

ولكى يؤكد هذا المعنى فى أخلاق الفرد قال ... «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه» ...

وأراد أن يستبعد كل أسباب الشجار والعدوان فقال : «إذا مر أحدكم فى مجلس أو سوق وفى يده نبل فليأخذ بنصالها ، لايخدش بها أحدا» ...

ثم لكى يوكده فى أخلاق الأمم نادى بقول الله : « يا أيها الناس إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» ، نعم . لتعارفوا ... لالتحتربوا وتتصارعوا.

أما القتال فى الإسلام فقد كان ولا يزال مُوثقاً بضرورة الدفاع عن النفس ، مقيدا بقول الله سبحانه ... «قاتلوا الذين يقاتلونكم . ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين» وهو بهذه الثابة محصور فى أضيق الحدود لا يهدف إلى إفناء الجماعات عن طريق الذرة وحرب الجراثيم ... بل يفرض على الناس ألا يجاوزوا فى قتالهم مكان المعركة؛ ويدعوهم لأن يكونوا — إنسانيين فيقول ... « لا تقتلوا امرأة ، ولا وليدا . ولا تحرقوا زرعا ، ولا نخيلا ، ولا تنهبوا ، ولا تمثلوا . واجتنبوا الوجه لا تضربوه» ...

لقد وقع الضمير السياسى للعالم فى مأساة ... وأصبح شعاره اليوم قول الشاعر :

قتل امرىء فى غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر !!

فما أشد حاجته إلى كلمة سواء ؛ تحيل صحراءه المجدبة واحة خيرة وديمة أيها السادة ... إننا الآن نعيش فى حركة نقلتنا خطوات إلى أمام ... ومن حقنا بعد هذه الوثبة أن نتمتع بسلام طويل المدى فى الداخل والخارج حتى ندعم وثبتنا ، و نرعرع نهضتنا .

فلنتشبث بالسلام إذن ، ولنربأ بأنفسنا أن نكون علفاً لحرب عدوانية لا هدف لها ، ولا شرف فيها ...

ولنلخص حياتنا ونهجنا فى هذا الشعار :

أحرار دائماً ...

ومع السلام أبدا ...

حقّ الشعب في المساواة

كان الناس أمة واحدة · يسعدون معاً ويشقون معاً ، ويدأبون جميعاً حتى اقتحمت حياتهم عوامل لم يكن منها بد؛ فقلبت الأوضاع ونأت بهم عن الرشد ... وأتى على البشرية حين طويل من الدهر، وهي تتراكض في وجود تعس مظلم . يحقر الأعز منها الأذل ... ويلتهم القوى فيها الضعيف ·

وجاءها الأنبياء ... ومر بها الفلاسفة والرواد ، فدقوا جميعا طبول المساواة . وأخذوا بيد الإنسان المستعبد لشهوات القاهرين ومصالحهم نحو التحرر والخلاص ·

وقف «بركليس» يقول : « سنفتدي بالحياة نظامنا الذي ارتضيناه ... نظامنا الذي يهدف لتحقيق مصالح الأكثرية لا الأقلية؛ والذي يجعل أساس التفاضل بين الأفراد ، الموهبة والعمل ، لا الثروة والجاه »

واقترب عيسى عليه السلام من الفقراء والمستضعفين ليرفع معنويتهم المنهارة فقال لهم : « ما أسعدكم أيها الفقراء فلكم مملكة الله » .

وأراد أن يجرئهم على المترفين الذين لم يكن أحد يستطيع أن يرفع بصره إلى مواطىء أقدامهم فناداهم : — «ما أشقاكم أيها الأغنياء فإنكم قد نلتم

عزاءكم ... إن ولوج الجمل فى سم الخياط الأسهل من دخولكم ملكوت الله » !!

ثم استدار بوجهه نحو الذين كانوا عونا للأنانية والاستعلاء فصاح فيهم

« يامن تحبون الصدارة فى المجامع والتحيات فى الأسواق ؛ ويل لكم .. »

« يامن تضعون على عواتق الناس أحمالا لا يطاق حملها وأنتم لاتمسونها بأصبعكم ويل لكم .. »

ثم أعلن أهدافه الإنسانية فى عزم أكيد فأخذ يتلو كلمات أشعياء

« أن الرب مسحنى لأبشر المساكين . أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسبيين بالعتق . وللمأسورين بالانطلاق . . . لأعزى كل النائحين »

وعلى قمة التطور الدينى وقف محمد عليه السلام يؤكد المساواة بين البشر جميعا فيقول :

« الناس سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . . . كلكم لآدم وآدم من تراب »

وحمّل نفسه كل تبعات هذا المبدأ ، والتزمه التزاما سيطر على فكره ، وسلوكه فهو حين يدخل على أصحابه ويقفون له ينهاهم قائلا : « لا تقوموا ، كما تقوم الأعاجم . يعظم بعضهم بعضا » .

وهو حين يناديه أصحابه — أنت سيدنا وابن سيدنا ؛ يزجرهم قائلا — « لايستهوينكم الشيطان فما أنا سيد أحد . إنما أنا عبد الله ورسوله » ...

وهو حين يسمع أحد صحابته ينابذ أخاه قائلا له — يابن السوداء . يغضب حتى تنتفض عروق وجهه ويقول : — « ويحك يا أبا الدرداء .. أردة إلى الجاهلية . . . ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل . » !!!

وهو يوم يخرج مع أصحابه فى غزو أو سفر يعمل مثل ما يعملون » فإذا قالوا له : نحن نكفيك ذلك يا رسول الله . . . أجابهم : « إنى أكره أن أتميز عليكم » .. !!

ولقد زاره يوما وفد من أعيان قريش وكبرائها مظهرين استعدادهم للإيمان به والإصغاء له بشرط أن يجعل لهم يوما وللفقراء يوما . . . قائلين — ما كان ينبغى لصعاليك مكة وعبيدها أن يجلسوا منا بمنزلة الأنداد والقرناء .. فأذا الوحى يدمدم بقول الله — «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تَعْدُ عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا ...» .

وهكذا حملت النبوة الهادية مشعل المساواة من زمن بعيدة وحرضت عليها بنفس العزم الذى حرضت به على عبادة الله ... وما كان بوسعها ألا تفعل ، فالدين الذى لا يقدس المساواة يفقد ذاته ... لأن غاية الدين الأولى إنهاض الكرامة البشرية ولن يتأتى ذلك وفى الناس آلهة وعبيد .

ولا شىء يعدل حاجة الناس إلى المساواة ، سوى حاجتهم إلى المساواة فالشعور بالدونية يمسخ الملكات الأنسانية ويشوه الرقى البشرى .

والأحساس بالتمايز الظالم والتفاوت الآثم يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعلها نهب خاطرات الحقد ونوازع الانتقام ، لاسيما إذا كان هذا التمايز أمام القانون ، حيث ينجو الأشرار الذين يسرقون الملايين ليشيدوا بها حياة باذخة . ويسجن

الفقراء الذين يسرقون الملايين ليدفعوا بها مجاعة محققة . !

هنا يجلجل دين الله على لسان أحد رواده الشجعان ـ «والذى نفس محمد بيده ، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها» ..!!!

وهنا أيضا تعمل المساواة داخل حدودها المشروعة دون أن تتعداها فلا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا يؤخذ زيد بجريمة دعد ... وكل امرىء بما كسب رهين .

أيها السادة ... إذا كان لله ظل فى الأرض ، فظله المساواة لأنها العدل ولأنها الحق ، ولأنها السلام ... وليست المساواة أن يتساوى الناس فيما يأكلون وفيما يلبسون . بل أن يتساووا فى الحقوق والواجبات وفرص الحياة جميعها .

إن المساواة ترفض أن يكون المرح والرخاء فى جانب ويكون الحزن والمسغبة فى جانب آخر ، ترفض أن تكون الحرية والسعادة لقوم ، وتكون العبودية والهوان لآخرين .

ترفض أن تملك عصابة وسائل الإنتاج ، وتذهب ملايين الناس وقودا لهذا الإنتاج .

ترفض أن يكون الطريق إلى البرلمان ؛ العصبية والنصاب ، وأن يكون الطريق إلى المناصب ؛ النفوذ والجاه .

وبعبارة فاصلة :

نرفض الظلم ، لأنه ضلال .

نرفض التمايز ، لأنه غرور .

نرفض التعصب ، لأنه انقراض .

فلتكن المساواة عقيدتنا — أفرادا ، ومجتمعا ، ودولة .

وتعالوا نَقْض أيامنا على هذه الأرض سواسية وإخوانا .

هذا المال

يقص علينا حكيم بن حزام صاحب رسول الله هذا الحديث :

ذهبت إلى رسول الله يوما ، وسألته مالاً فأعطانى ، ثم سألته ، فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ... ثم قال :

« ياحكيم إن هذا المال خضر حلو ؛ فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ؛ وكان كالذى يأكل ولا يشبع » .

ليس رسول الله هو الذى يزجر الناس عن الحياة ، ويذودهم عن الثراء فلطالما كان يسأل الله فى دعائه أن يرزقه العفاف والغنى ؛ ولطالما تعوذ بالله من الكفر والفقر ، حتى سأله أصحابه يوما قائلين :

يارسول الله نراك تقرن الكفر بالفقر ؛ أهما توأمان ؟ قال : نعم هما توأمان .

وكان يقول فى مناجاته ربه « اللهم أصلح لى دنياى التى فيها معاشى »

وكان يدفع أصحابه إلى تمرس العيش والحياة بكلتا يديه ، فنراه مثلا يأمر رجلا جاء يسأله ، أن يذهب ، فيبيع من متاعه المتواضع ما يساوى

درهمين ، ثم يأمره أن يشترى بأحدهما طعاما لأهله وبالثانى قدوما يحتطب به حتى لايكون عالة على مجتمعه ، فيفعل الرجل . ويغنيه الله من فضله .

وأيضا ليس الرسول عليه السلام بالذى يدعو الناس للتكالب على الثروة تكالبا يفقدهم إنسانيتهم ، ويشحذ ضراوتهم ، ويلاشى من نفوسهم كل شعور بفضائل الحياة وواجباتها ، ولكنه يختار للناس طريقا وسطا ؛ ويروض غريزة التملك فيهم على الاستقامة والأناة ويدعوهم ليثمروا فى الأرض من غير بغى ، ويمشوا فى مناكبها مشيا سويا لا نزق فيه ولا سُعار .

وإنه ليصف المال بما سمعتم ، خضر حلو ، له رعرعة ولذة ؛ يسر العيون ويفتح الشهيات ؛ وشىء فيه مثل هذه الدواعى الآسرة الفاتنة جدير بالناس أن يقبلوا عليه فى أناة ورفق .

وهو عليه السلام يقرر حقيقة خالدة هى : أن الذين يطلبون المال وينشدون الثروة بسخاوة نفس أى فى ذمة واعتدال ، يبارك لهم فيه ، أما الذى يطلبه فى شراهة وجشع فهو كالبطون الذى لاينتفع بما يأكل من طعام .

كان لبعض الأسر خام مردت على سرقة الأطعمة من مطابخ الجيران ولما استيئس ذووها من أمرها ساقوها إلى نيابة الأحداث ؛ وهناك تسلمها مكتب الأحداث للخدمة الاجتماعية وعرض الفتاة على طبيب ؛ ليكشف عن البواعث المرضية لهذا الانحراف .

هنالك وقف الطبيب على السر ، فقد كان جوف المسكينة مرتعا لديدان الأسكارس ، وهى ديدان نهمة تسطو على كل طعام يدلف إلى المعدة

وتذهب منه بنصفه على الأقل ؛ ولم يكن عجبا أن تصير الفتاة بمجرد علاجها من هذه الديدان شريفة النفس عفة اليد .

هناك ديدان شبهية بديدان الأسكارس تعايش بعض الضمائر المريضة وتلتهم كل ما فى هذه الضمائر من زاد، وفضائل ، ومُثل .

ثم تتركها ضامرة ممحلة ؛ وليس بها شىء من البر ولا من القناعة ، ولا من الإيمان . وإذا انطفأت هذه الأضواء فى قلب رجل تاه دليله ، وإذا تاه دليله استحوذ عليه القلق والهلع فيجرى وراء المال يجمعه ، حاسباً أن المال وحده هو المأمن والملاذ ...

مسكين صاحب هذه النفس ... إن فى أقصى نفسه آفة ترعى نعيمها وتلتهم نُقاها حتى تدعها كالهشيم . ولكى ينهض الجماعون للمال من هذه السخرة المضروبة عليهم لابد لهم من علاج . وعلاجهم بأيديهم . أن يضعوا أموالهم فى خدمة الجماعة وأن يسعوا إليها فى قصد . وقد تبدو لهم هذه المحاولة سفرا بعيداً بسبب ما ران على قلوبهم من كزازة وجشع . ولكن لا بأس ، فالخطوة الأولى هى وحدها العقبة وهى المشكلة فليبدأوا بها . إن السعادة والسكينة من ورائها .

أيها السادة ـ مرة أخرى أقول ـ إن الإسلام لاينهاكم عن تنمية الثروة وأربائها ... ولكنه يريدلكم مع المال الوفير سكينة النفس واستتباب العقل ؛ وقديما قال حكيم « خَلِّ يارب نعم الحياة الدنيا تحت أقدام الحمق ، وأعطنى عقلا غير مضطرب » ..!

والذى يُكبّ على وجهه فى جمع المال، ويجرى وراءه كالمسعور لن يتأتّى

له أبد الدهر أن يجد سكينة نفسه ؛ إن أسوأ الرذائل عاقبة ، تلك التى تتنكر فى ثياب فضيلة. وكثير من النهمين يقنعون أنفسهم بتعلّات كثيرة واهية. بيد أن الحقيقة فى أعماقهم تصرخ ـ إنكم لكاذبون ؛ وهذه الوصاة الكريمة التى تضمنها الحديث ، تمثل أحد المبادىء الرشيدة فى العلاقات الإنسانية .

ذلك أن الفرد التى تستعر فى كيانه رغائب المال تختفى من نفسه معالم الإنسان المتمدين ؛ وينطلق كالوحش السائب غير مقيد سلوكه بقوانين المجتمع ولا اعتباراته ؛ طاغيا على حقوق الآخرين من الناس .. ومثل هذا العمل جريمة لا ضد صاحبه فحسب ؛ بل ضد الجماعة أيضا لأنه يحرم أعضاءها من فرص رغيدة كانت ستتاح لهم أو لبعضهم لولا هـــذه الآفة المتبدية فى صورة إنسان .

إن المال فى يد الرجل العاقل المستأنى ؛ خادم طيب ... ولكنه مع المتهالك المتطاول سيد مستبد.. يتحكم فيه ويسخره ، ويمحق كل راحته وكل كرامته ؛ وما كان الضنك الذى يعانيه الناس إلا وليـــد عصابة آبقة من الناس تملكتها رغبة جامحة فى الاقتناء فذهب أصحابها يجمعون المال بأصابعهم المتشبثة لا يعنيهم من حلال جاء أو من حرام .

سادتى ـ ذهب سعد بن أبى وقاص إلى رسول الله عليه السلام وقال له يا رسول الله : أوصنى وأوجز ؛ فأجابه النبى : إياك والطمع فإنه فقر حاضر. فانتفعوا بهذه الوصية وتعلموا إنكار الذات ، ولا تشوهوا حياتكم بالقلق الذى لا يشبع ؛ والنهم الذى لا يقنع ؛ ولنرتفع بكرامتنا إلى المستوى

لذى نطل منه على المال ؛ فنراه وسيلة لا غاية .. وخادما لا سيدا .. ولنعتبر بمصارع السعدائين الذين ذهبوا يلهثون وراء الثروة حتى تقطعت أنفاسهم ؛ فلا هم أدركوها ولا بقيت لهم حياة .

إن أولئك المعتدلين فى رغباتهم الذين يسيرون إلى الثروة على صراط من الفضيلة والأمانة والاتئاد هم وحدهم الجديرون بحياة حميدة نافعة ليس فيها دموع .

———

أناقة النفس

سيدتى :

أنت تحرصين على أناقة ثوبك ...

وتحرصين على أناقة تكوينك ...

وتحرصين على أناقة منزلك ... وليس فى هذا ما يضيرك أو يسىء إليك ، فالله جميل يحب الجمال ، نظيف ، يحب النظافة ...

وإنما يضيرك أن تنسى أجلّ ألوان الأناقة وأزكاها ... تلك هى : أناقة النفس .

وأناقة النفس فضيلة تنقص الكثيرين منا — نحن الرجال والنساء — بيد أن هذا النقص يبدو فى المرأة أكثر وضوحا ، لأنها أكثر إشراقا ... وكلما توهج الضوء ، التمعت النقيصة ، ووضح العيب ...

وأناقة النفس — كذلك — ليست شيئاً يوجد على قارعة الطريق ، ولا سلعة تباع فى المتاجر والحوانيت ؛ ولا رحيقا نستحلبه من أندية الأمهات .

بل هى ثمرة رياضة روحية ، ودأب عقلى وخُلقى ...

نعم ... هى ثمرة استجابة واعية ، تجعل من الرقة الواهنة ، إخلاصا

حيا – ومن الثرثرة الفارغة ، معرفة نابضة ، ومن الوجود المهمل ، حياة نافعة ... والمرأة التى تبلغ هذه المنزلة من الرقى النفسى ، هى التى تهز المهد بيمينها والعالم بيسراها ... وتستطيع وحدها – دون الأخريات – أن تُلهم الحياة نبوغها وتقواها ...

سيدتى ...

إن الوطن فى محاولته الجديدة يريد منك أن تهبيه مواطنا زاكى النفس فالفساد الذى تغشّى حياتنا ، وخيّم عليها كل ذلك الدهر الطويل ، لن تلغيه القوانين – ولكن تلغيه الإرادة المنبعثة من أنفس أنيقة ، نظيفة ، مترفعة تأنف الإسفاف . وتسمو فوق الصغار .

ولن تستطيعى أن تعاونى ولدك على إنهاض شخصيته ، وترقية نفسه ، إلا إذا سبقتيه إلى ذلك ، فكنت ذات شخصية ناهضة ، وروح مضيء ..

وإنك لقادرة على أن تحملى نفسا أنيقة ، بمثل قدرتك على أن ترتدى الثوب الأنيق ... ولن يتطلب الأمر منك مشقة ولا عُسْرا .

إنما يتطلب إيمانا بحتميه الظفر بهذه الفضيلة ... إيمانا بأن أناقة الروح أدعى للاغراء المهيب ، والإجلال الودود من أناقة الثوب ... إيمانا بأن الحياة قد ضاقت ذرعا بعارضات الأزياء ... ومضت تتلمس فى المرأة الجديدة والفتاة الحديدة روعة الروح ، وجلال الهدف ، واستقامة الطريق ..

أعرف نساء كثيرات ، تحيط بالواحدة منهن هالة كاذبة من ضوء باهت مصنوع .

يسر منظرها الأعين بادىء الأمر ، حتى إذا تكلمت فضحت نفسها فإذا فى رأسها الذى كان يبدو فاتنا ، جمجمة خرعة غبية ... وإذا وراء صدرها الذى كان يبدو ودودا . قلب مفعم بالسوء والسواد . وهكذا تنطفئ الهالة . ويرتد ضوؤها الشاحب ظلاما فى ظلام ... !!

ذلك لأن الضوء لم يكن قادما من النفس ، لم يكن منبعثا من الروح والأعماق ، بل كان مجلوبا من الخارج . لا تمده عظمة باطنة ... ولا يمسك به تيار الفضائل الكامنة ...

والوطن الذى يترهل بهذا الطراز من النساء يبتلى بشر ما يمزقه ... فالمرأة نصف الأمة وعليها أن تفكر كما يفكر الرجل ، وتعمل مثل الذى يعمل ، وتضرب فى كل مناكب الأرض بعمل بصير ، وساعد قدير ...

ولن يتأتى لها ذلك . وهى مشغولة بزخرفها ... تاركة عقلها يموت من الجوع . وروحها يلهث من الظمأ ...

نحن اليوم بحاجة إلى الفتاة التى تعنى بنفسها أكثر مما تعنى بجسمها . وترى فى حفيف أوراق كتاب تحمله وتطالعه ، جَرْسا أعذب وأنغم من وسوسة الحلى وصليل الذهب . وتشم من تراب الأرض ، ومن دخان المصانع عبيرا ، دونه كل العطور التي تملأ معاطسها ...

وتشغل جميع وقتها بأعداد نفسها ، وإمداد أمتها ...

وأيضا ... فى حاجة إلى السيدة التى تفعل مثل ذلك ...

لقد روى التاريخ عن فاطمة بنت النبى عليه السلام أنها كانت تملأ

اللحظة العابرة من حياتها بالعمل والحياة فكانت — فى وقت واحد — تدير الرحى بيدها ، وتداعب مهد الحسين برجلها ، وتتلو القرآن بلسانها ، وتفسره بقلبها ، وتبكى من خشية الله بعينيها ... ولو أسعفها زمانها بأكثر من ذلك من وسائل الدأب والجد ، لأقبلت عليه فى شجاعة وغبطة ...

وها هى ذى — مدام كورى — معجزة إنسانية خالدة تتلألأ بين بنات جنسها ، وتناديهن أن كل شىء ممكن ... ومن سار على الدرب وصل .

ماذا فعلت مدام كورى — أيها السيدات — حتى اقتعدت من التاريخ أعلى منائره وأباجه . لاشىء سوى الإيمان بنفسها ... وما كان لها أن تؤمن بنفس مريضة ، محطمة ، مظلمة ، عطنة ... لذلك كانت خطوتها الأولى — أن تنظف نفسها . وترعاها . حتى إذا تألقت فرضت عليها إيماناً بقدرتها وثقة بجلالها ... وهذا هو ما تدعوكم إليه مصر الحديثة ...

أن تضعن الوادعة مكان التصنع ... والبساطة مكان التظاهر ... والإيمان مكان الغرور ... والحماس مكان الترهل ... والعمل موضع اللهو ... والحب بديل الغيرة ...

وأن تقفى أمام نفسك ، أكثر مما تقفين أمام المرآة ...

وأن تجعلى لحياتك غرضا ساميا ، وهدفا نبيلا ...

إذا فعلت ذلك ، كنت تلك الأم ، التى تخلق أمة ...

وإذا لم تفعلى ، فأنت ياسيدتى مهما اصطنعت من زخرف وزينة ، حطام .. حطام يطفو فوق العباب ...

سيرى مع القافلة

سيدتى :

منذ ثمانين عاما — تقريبا — تقدمت فتاة أمريكية إلى غرفة التشريح تحمل لأول مرة فى تاريخ المرأة مبضع الجراحة ... تقدمت لتشهد كبير أطباء « روزنبرج » يومئذ ، وهو يقوم بتشريح جثة لرجل

وفغر الحاضرون أفواههم من الدهشة ، وازدحمت على وجوههم المشمئزة كل علامات الوجوم ، والمقت ، والاحتجاج .

وجابهها كبير الأطباء بقوله :

— ليس يجمل بامرأة أن تشهد تشريح جثة رجل

فأجابت من فورها :

— أى فارق بينه ، وبين أن يشهد رجل تشريح جثة امرأة :

ومضى الطبيب يمعن فى إحراجها ، فقال :

— إن العلة التى قضت على المريض قد أصابت من أعضائه عورة

فأجابته :

إن أعضاء الجسم كلها ، يجب أن تكون فى عينى الطبيب سواء .

وبهت الدكتور « بارنز » والتوى لسانه الطويل تحت وطأة المنطق الصارم ، والحجة البالغة .

وفتحت الفتاة الجريئة طريقاً جديداً للمرأة ، وللحضارة .

* * *

هذه القصة ، وعشرات مثلها . تصور الكفاح الباسل الذى مارسته المرأة لتصير شيئا مذكوراً ، ولتأخذ مكانها المشروع فى قافلة الحياة .

فهل تستطيعين الآن — ياسيدتى — أن تسألى نفسك عن مدى ارتباطك بهذه القافلة ، أو عن مدى تخلفك عنها ...

إن العمل ، هو وحده جواز المرور إلى القافلة والانخراط فيها ...

العمل بكافة ضروبه وألوانه . . . فى البيت ، وفى المجتمع .

العمل من أجل نفسك وطفلك وزوجك . . . والعمل من أجل بيتك ووطنك .

إن الأيام التى حكمت على المرأة أن تعتكف فى دارها ، وتنطوى على نفسها ، وتنفض يدها من تبعات الوجود لم تكن سوى أعراض غيبوبة طارئة ألمت بالحياة وتفشّت الإنسانية ثم ذهبت ولن تعود ... وأن مصاير الأمم تقررها اليوم ، الطاقة الكامنة فى داخلها ، والعمل المبذول فى سبيلها وأنت تمثلين نصف الطاقة وتحملين نصف الأمانة . . وفى يديك إذا شئت أن تتحولى إلى كارثة محققة ، متى استلمت للبطالة أو أضعت طاقتك الزاخرة فى عمل تافه صغير .

وهذا الحديث موجه للفتيات اللاتى يستقبلن الحياة . وللامهات اللاتى صاغ لهن الماضى نمطا كسولا من حياة رتيبة بحيث لم يعد بوسعهن أن يجدن لتغييره سبيلا .

أما الأوليات ؛ فلكى ينسجن بأنفسهن وهن فى بداية الطريق حياة فافعة مجيدة متعددة الآفاق والإمكانيات ... وأما الأخريات فلكى يساعدن بناتهن على أن يكن لبنات حية فى البناء الجديد، وأن يجنن استئنافا لشباب العقل وشباب الروح ، الذى تغضن فى أمهاتهن قبل الأوان .

يجب أن تشحذ الفتاة الجديدة جميع إمكانياتها حتى تؤدى ضريبة الهواء الذى تتنشقه من سماء مصر ... والماء الذى تشربه من نيل مصر .. والعبير الذى تشمه من تراب مصر .

ويجب إذا وضعت قدمها على عتبة المدرسة ألا تغادرها حتى تقطع الشوط كاملا . . . وحتى تزود من الثقافة بحظ وافر يمكنها من أن تعمل كما يعمل الرجل ، وتكسب كما يكسب

إن الفتاة التى تستطيع أن تكون زوجة وكاسبة تسدى لزوجها . ولبيتها وبنيها أجل الخدمات . إذ ترفع مستوى دخل الأسرة ، فيرتفع منسوب حياتها

سيدتى — إن العمل يجلو الشخصية ويجدد شبابها ، ويجعلك فى المجتمع خيرا لا غنى عنه بدلا من أن تكونى شرا لا بد منه .

لماذا تنعم الأسرة فى البلاد المتحضرة . ولا تتدغدغ تحت مطارق الشقاء والفاقة ؟

لأن الرجل يعمل ويكسب ، والمرأة تعمل وتكسب ، والأبناء القادرون يعملون ويكسبون . حتى طلاب المدارس والجامعات . . . يقضون عطلة الصيف فى حِرَف يجمعون بها نفقات العام الدراسى المقبل .

أما هنا . . . فى بلاد التقاليد والفقر ، فإن رجلا واحدا هو الزوج . . . ينوء كاهله المضنى بنفقات أسرة كاملة عاطلة فيذبل شبابه ، ويهرم عزمه ويموت قبل الأوان مخلفا وراء ظهره المنقوض سيدة مترهلة من السمنة والاكتناز . . .

تعلمى كل شىء . . . واعملى أى شىء ... وإذا كنت بحكم ظروفك غير قادرة على العمل فى الوظيفة . فاخلقى لنفسك عملا بالمنزل يملأ فراغك المبعثر ، ويشد أزر ميزانيتك الضحلة الخائرة .

وانفخى فى أولادك روح العمل . . . واضربى لهم الامثال بعظماء البشر الذين كانوا ، وهم يطلبون العلم ، يجمعون الحشائش من مزرعة ، أو يغسلون الأطباق فى مطعم ، أو يبيعون الصحف فى الطريق . . . ثم كان جزاؤهم الحق ومثوبتهم الأكيدة أن صاروا للبشرية أئمة وأعلاما .

إذا فعلت ذلك أيتها السيدة ، وأنت أيتها الفتاة ، كنت عضوا نافعا متألقا فى قافلة الحياة .

درس من محمد

فى هذه الأيام الحاسمة من تاريخنا ، وحيث نتلفت ذات اليمين وذات اليسار متطلعين إلى أصدقاء يشدون أزرنا ، ينبعث من أعماق التجربة الإنسانية صوت يقول :

— « إذا لم يكن لك من ذات نفسك صديق ؛ فلن يكون لك فى الأرض كلها صديق » .

وينادينا محمد بن عبد الله من وراء القرون ... « استعن بالله ولا تعجز ، واعلم أن النصر مع الصبر » .

ليس معنى هذا أن نرفض صداقة الخيرين الشرفاء . وأن نعطى ظهورنا للحياة وللأحياء ... ولكن معناه أن نبدأ فى علاقاتنا الإنسانية بأنفسنا ؛ فنثق بها ، ونجعلها أهلا لهذه الثقة بأن نتيح لها كل فرص القوة والعزة والنماء .

إنه لمن العسير بل الممتنع على الذين يفقدون الثقة بأنفسهم أن يكونوا شيئا ، أو أن يظفروا من الحياة بشىء ...

وفى تاريخ الرسول عليه السلام عبرة تعزز هذا المعنى ، وتضع عزمنا على نقطة البدء فى طريق الخلاص ...

ذلك أن اليوم الذى أرسى فيه محمد قواعد دعوته ، ووقع وثيقة انتصاره، لم يكن يوم « الهجرة » حيث نجا برسالته من هلاك يطارده . ولا يوم « بدر » حيث أظهره الله على أعدائه وأهال عليهم تراب القليب ... ولا يوم «الفتح» حيث جاء الحق وزهق الباطل... ولا يوم طرقت أبوابه بعوث الملوك تنثر تحت أقدامه ولاءهم ... إنما انتصر محمد ، وفرض عظمته على التاريخ فى يوم آخر وفى مناسبة أخرى .

يوم كان يغدو وحيدا ، ويروح فريداً ... والمستقبل المجهول يبدو متجهما فى نهاية طريق موحشة تعج بالسباع المتربصة ، والكلاب اللاهثة ...

يومئذ ، والأمل فى الظفر — أدنى ظفر — كالأمل فى بناء قصر هائل من أشعة القمر . . !

يومئذ ، ومحمد أعزل من كل شىء ... من المال ، والسلاح ، والأنصار...

يومئذ ، والساعات تمر به حزينة مقهورة — استطاع أن يهمس فى سمع الزمن : أن أفسح لى بين أيامك طريقا ؛ فقد قررت أن أسير ... !

ومن هنا كان محمد رمزا عظيما ... ولم يكن مجرد رسول . امتحنته الأيام امتحانا رهيبا حين وسط المشركون عمه أبا طالب بينهم وبينه ؛ فجلس إليه يقول :

— يا ابن أخى : إن قريشا تشكو من تسفيهك أحلامهم وشتمك آلهتهم . وهم يعرضون عليك المال حتى تكون أغناهم ... والجاه حتى تكون أشرفهم ... والمنصب حتى تكون سيدهم ... وأنا أنصحك بالكف عنهم حتى لا يصيبنا ويصيبك منهم سوء ...

وانفرجت شفتا محمد ، وتألقت دمعاته على وجنتيه كحب الجمان وقال :

— يا عم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله ، أو أهلك دونه... قالها عليه السلام . وهو فى مثل هدوء المحيط وقوته ...

فالجداول الصغيرة هى التى تثرثر بموجاتها الهزيلة الوهنانة ... أما المحيط فيبتلع الأعاصير ، ويطوى العواصف . ثم يمضى فى جلاله المهيب لا تسمع له لغطا ...

وازدهى وجه أبى طالب وراء قناع من السكون ، وتحرك رأسه كمن أصابه دوار البحر ، أو دوار المحيط ...

ورأى المستقبل من خلال كلمات محمد البلورية ... وشدّ يده على يد ابن أخيه قائلا :

— امض لما أمرك الله . ولن أسلمك إليهم أبداً .

ومضى محمد يهدر ليس معه بادى الأمر أحد سوى نفسه ... سوى ثقته بصلابتها ، وجدارتها ، وتقاها .

واليوم ما أشد حاجتنا إلى استذكار هذا الموقف الجليل ... فهناك من يأخذون المسالك على الكاتب الحر ، والحاكم الحر ، والمواطن الحر ... يَعِدُونهم ، ويُمنونهم . ويحذرونهم من تسفيه أحلام طواغيت الغرب المتمثلة فى دوله الاستعمارية الرجيمة .

فاذا كان الإنسان المتمرد على هذه الطواغيت الفاجرة حاكما ، أو رائداً

لوّحوا له بالمال حتى يثرى ... وبالجاه حتى يشرف ... وبالمنصب حتى يسود ... فاذا أخفق ذهب المعز بدا سيفه يخوف ويرعب ... ولكنه لن يخوف سوى الجبناء الذين ليس بداخلهم أنفس رفيعة أبية يثقون بها ، ويعتمدون عليها .

ترى ماذا كان يحدث لو أن ابن عبـــد الله خضع لإغراء أعدائه أو إرهابهم ؟

كانت رسالة العدل والحق ستفقد نصيراً من أقوى نصرائها ... وكانت خطوات الطغيان ستسرع المسير بقدر ما تبطىء خطوات الحق وتتعثر . ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته . فاختار لها رجلا لا يبيعها بالشمس ، ولا بالقمر .

إن البشرية اليوم تعبر الطريق إلى مستقبلها على صراط حاد دقيق . وإن أدنى خيانة أو انحراف من المغامرين والأفاقين قد يهوى بالإنسانية كلها إلى مكان سحيق ... فلننسج على منوال محمد ...

وليقف هذا الشرق الأوسط — مهد النبوات — مفتوح الأعين على على كل مؤامرة . وليحذر أن يكون قنطرة أو مهاداً للطواغيت الباغية .

إننا لا نتخلى عن واجبنا حيال أنفسنا وحدها . إذا نحن هادنّا الاستعمار أو حالفناه ... بل نتخلى عن واجبنا حيال البشرية كلها ... بل نخون هذه البشرية فى أثمن ممتلكاتها ، وهى الحرية والحياة .

سيحاول المستعمرون أن يفتنونا عن تبعاتنا ... سيحاولون أن يضيع

فى رنين الذهب وضجيج الدولار هتافات ضمائرنا ... سيقعدون لنا بكل مرصد ...

سيجلبون علينا رجوتهم · ورهبوتهم ...

ومع هذا ففى وسعنا أن ننتصر عليهم ، ونهزأ بهم ، إذا عرفنا كيف نؤمن بأنفسنا ونحترم تبعاتنا ونزهد فى مغرياتهم الموبقات · ويجعل كل واحد منا من نفسه محمداً آخر يقول فى تحد وإصرار :

— والله · لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلك دونه .

قاتلوا الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا

فى حديث لنا سبق، عرضنا فكرة الدين عن الحرية والسلام و بَصَّرْنا بأنبياء الله يصنعون للسلام فُلكا مبسوطة الشراع. ونريد اليوم أن نتحدث عن الفارق بين السلام والاستسلام . نريد أن نعرف متى يكون السلام هوانا وجبنا . ومتى يكون القتال سلاما وأمنا .

وفى الوقت الذى ندعى فيه من قاتلينا وجلادينا إلى امتشاق الحسام يصير لزاما علينا أن نحملق فى وجوه الحوادث لنتبينها ونسدد أبصارنا وبصائرنا إلى من حولنا لنميز الصديق من العدو ، والخبيث من الطيب ، والحق من الضلال .

وإنه ليطيب لى دائما أن أقف مع الحق ؛ ولو سألتنى أمتى أن أختار لها ، ما آثرت عليه سواه ... وهناك من الناس من يرون فى التشبث المستمر بصحبة الحق غرارة وسذاجة ، ويقولون : هناك مُقابل للحق يجب ألا ينسى ... وهو المنفعة ... !

أصحيح هذا ... ؟

أصحيح أن المنفعة تقابل الحق . ؟

أصحيح أنها أولى من الحق بالتقدير والاعتبار ؟

أما أنا فأرى فى مثل يقين المرسلين أن المنفعة النقية مرادف للحق ، وليست مقابلا له ... ومن ثم لا أجد مجالا للمفاضلة بين المنفعة والحق لأن المنفعة هى الثمرة الحتمية للحق . هذه سنة الله فى كونه وخلقه . ولقد ضرب مثلا للحق والباطل فقال ! « كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفاء ، وأمّا ما ينفع الناس ، فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب اللهُ الأمثال . »

وفى مجال السياسة الدولية ، ينشب اليوم صراع عسير بين الحق والباطل ... بين الذين يؤمنون بحقوق الإنسان والذين يكفرون ... وحيثما نرسل أبصارنا نجد فى روابى أفريقيا ، وعلى نجود آسيا ، شعوبا مستبسلة تريد أن تقذف بالحق على الباطل لتدمغه .

ففى تونس والجزائر ومراكش . .

وفى مصر والعراق وشرق الأردن والسودان ...

وفى الهند الصينية ، والملايو ، وتنجانيقا ، وفيتنام[1] ...

فى كل هذه الأقطار وفى أخرى غيرها ، تلتقى الحرية والاستعمار فى معركة تكاد تكون فاصلة ... وإنه لحدث مجيد فى تاريخ الإنسان ، أن تقف هذه الشعوب العزلاء فى وجه عصابة ضخمة عاتية من دول كبرى أعلنت ألوهتها فى الأرض . ومشت فى مناكبها بالأثم والبطش تحمل الدولار فى يُمناها ... والقنبلة الذرية فى يُسراها ... ! !

نعم . إنها لمعجزة يصنعها المستضعفون بأنفسهم لأنفسهم ، حين يعلنون بكفاحهم الجسور استعصاءهم على كل رغبة ورهبة ، وحين يجدون

(١) لقد ظفر الكثير من هذه الأمم باستقلاله .

رغم خصاصة عقولهم وبطونهم ، وَعْياً يرشدهم ، وسواعد تشق لهم الطريق

يا أيها المستضعفون فى الأرض ...

يا أيها المناضلون عن حريتكم ... عن أعراضكم ... عن أقواتكم ... عن سلامكم ... أنتم اليوم جند الله فى هذه الأرض ليبلغ بكم أمرا كان مقدورا ... ولن نُهزم أبداً ما دام معنا وعينا وإصرارنا ، وما دام الحق رائدنا وحجتنا . ومهما يطل الليل وبعتم ، فأن وراءه فجرا مُشرقا ، وصُبحا بهيجا .

وفى غمار الأحداث الهائلة التى تدور بنا ، وحيث تختلط صيحات الحق بهمزات الباطل ، وإذْ يركب اللجاجة أقوام منا ، اصطنعهم الاستعمار لنفسه واتخذهم مطايا ذُللا . ينبثق من تعاليم الله شموع كضوء الفجر تلهمنا وتهدينا .

إلى أى شىء تُدْعَى مصر وما حولها ... ؟

إن شعوب هذه الرقعة من الأرض تدعى اليوم لتخوض الحرب ...

ضِدْ مَنْ ... ؟

ومع من ... ؟

ضِدَّ نفسها ... ومع أعدائها الذين مزَّقوها شر مُمزَّق ، وجعلوها سخرية وعارا ... !!

يالَلذِّلة إذن ، ويا لَلْهوان ... !!

إن المبدأ الذى يرسم علاقاتنا السديدة الرشيدة بمعركة اليوم الذى يتهيأ العالم لها ... يتمثل فى قول الله تعالى :

— « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ولم يُظاهروا على إخراجكم . ، أن تَبروهم وتُقْسِطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ! »

والآن ؛ فلنسأل أنفسنا ، ولنسأل سكان الكرة الأرضية جميعا

مَن مِن دول العالم يقاتلنا فى ديننا ، ويُخرجنا من ديارنا ، ويُظاهرُ على إخراجنا ... ؟

من الذين شرّدوا عرب فلسطين ، وانتهبوا منهم أموالهم وأرضهم وعرْضهم وديارهم ... ؟

من الذين مكّنوا لإسرائيل وزودوها بالمال والعتاد وقالوا لها : كونى شوكة الجنب للعرب الصماليك ... ؟

من الذين قتلوا ولا يزالون يقتلون الكهول والولدان والنساء فى مصر وفى سوريا وفى العراق وفى تونس وفى الجزائر وفى ومراكش ... ؟

من الذين حبسوا عنا السلاح . وسرقوا أقواتنا .

من الذين يقفون فى المحافل الدولية ضد حقوقنا ، ويُناصرون علينا أعداءنا ... ؟

من الذين أعلن وزير خارجيتهم وجيوش بريطانيا تسحقنا فى القنال ، « أن دولته تؤيد بريطانيا فى موقفها ، ولا تعترف بمشروعية إلغاء مصر لمعاهدة ٣٦ » ... ؟

هؤلاء — أيها السادة — هم الذين ينهانا الله فى كتابه عن أن نبرهم ونتخذ منهم أولياء وحلفاء . فإذا ما وصل الأمر إلى أن نقاتل معهم ، ونذهب علفاً لمدافعهم ؛ فان مغادرة الحياة على أية صورة ومِثال، تصبح فريضة الفرائض ، وشعيرة الشعائر . وبطن الأرض آنئذ خير لنا من ظهرها

وهناك آية أخرى تكشف عن وجه آخر لعلاقاتنا مع هؤلاء .

تلك هى قوله تعالى : « قاتلوا الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا . إنه لا يحب المعتدين »

إن الله سبحانه لا يرضى لنا أن نكون سلبيين مع هؤلاء الذين تحالفوا على مصيرنا . بل يحرضنا على قتالهم ، لأنهم البادئون ، والظالمون

أى سَنَد من دين ...

أى سند من خُلُق ...

أى سَند من منفعة . يأرِزُ إليه أولئك الذين يدعوننا اليوم للدخول مع الغرب فى أحلاف عسكرية عدوانية ... ؟

الغرب الذى غربت فيه كل آمالنا ، والذى لن يكون أبدا مشرقا لمستقبلنا ... !

لا أعرف صورة من صور الإلحاد فى دين الله ، والنكوص عن الشرف والحق والواجب أبشع من هذه الصورة ... صورة أمة أو أمم تحيي قاتليها ... وتموت فى سبيل جلادها الأثيم !! .

يا ويح العرب لو فعلوها . !

أنقاتل الذين يسالموننا ، ونعاضد الذين يقاتلوننا ، ويذبحوننا ذبح النعاج ؟

وَىْ ... كأنه لا يفلح الظالمون .!!!

لقد وعدنا هؤلاء أنفسهم بالإفراج عن حرياتنا مواعيد عرقوب .

أنصدقهم اليوم ، وهم الذين يخدعوننا فى كل يوم مرة أو مرتين ؟؟

لطالما حاربنا مع عصابة الشر والأفك والعار ...

لطالما وضعنا كل إمكانياتنا فى خدمة بغيها وبأسها ...

فماذا كان منهم ؟

كان أن زفوا إلينا فى ليلة سوداء عروس الشرق الأوسط إسرائيل .!

وكان أن ازدادوا جثوما على بلادنا ، وتقتيلا لأحرارنا ، وتشتيتا لوحدتنا .

فمن كان منا صاحب وعى ، فلينتفع بالتجربة ...

ومن كان ذا دين فليقرأ قول ذى الجـــلال « قاتلوا الذين يقاتلوكم . ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين » .

مَعًا، حتى لا تنتحر البشرية

بين نزوة الانتحار، وإرادة البقاء يتأرجح مصير الحياة، والأحياء.

فهل تتفوق النزوة، أم تتفوق الإرادة؟

إنا لنعلم أن الأرادة أحق بالفوز وأجدر.. ولكن فى واقع حياتنا كأفراد، وكجماعات، وأمم، مواقف تنتصر فيها النزوة وتفوز.

فى تلك المواقف يتقلص نفوذ الارادة، ويتقاعس إقدامها، وتتبلبل أمام واجباتها، فتتقدم النزوة مهتبلة الفرصة. وتحتل المسرح، وتقوم بدور البطل، وتصنع الحوادث لحسابها.

هكذا تعلمنا تجاربنا..

ولطالما داعبت نزوة الانتحار بنى الانسان..وكلما تسمعون الله سبحانه يحدث عن قرية بَطِرَت معيشتها، فاذكروا نزوة الانتحار التى أودت بها.

أمم كثيرة، ومدنيات مختلفة، صعدت فى جو السماء وأحاطت بسرادقاتها الأرض. ثم مادت، وبادت، وقضى أمرها كأن لم تَغْنَ بالأمس.

ووراء كل نهاية من تلك النهايات، كان بطر المعيشة ونزوة الانتحار.

يريد الناس أن يموتوا لأنهم يخافون الموت.

ويريدون أن يحاربوا لأنهم يخافون الحرب.

وليس ذلك بعجيب . فبقية من عصر الغابة والظلام لا تزال تترسب فى أعماق تفكيرهم ووجداناتهم . لتقول لهم : اليأس إحدى الراحتين .. ومنهاج اليائس نجاه مشكلته أن يحطم المشكلة عن طريق تحطيم ذاته ، ويتخلص منها ، بالتخلص من الإحساس بها وبالتالى بالتخلص من الحياة نفسها !!!

وهذه فلسفة كل امرىء يختار الانتحار .. مبهمة كانت تلك الفلسفة أم غامضة .

والبشرية اليوم تتفلسف .. وتمارس من الفلسفة فى ولع شديد ؛ ذلك النوع الذى يسمى بها إلى المصير المروّع المذموم .

إن نزوة الانتحار تراودها فى جنون قاتل ، فهل تذهب فى جوفها المسعور إلى منيتها . ؟ ؟

هل تتحول الأرض الجميلة العامرة المضاءة بعقل الإنسان وتصميمه ، إلى مقبرة . ؟ !

هل تتحول الحياة إلى مأساة ، والمدنية إلى خرائب وأطلال .. ؟ !

هل تعود الأرض للشمبانزى مرة أخرى يسودها ، ويتفوّق عليها ؛ ويعيد الكرّة ، فيحاول إنجاب إنسان آخر أهدى سبيلا ، وأكثر رُشْدا .. ؟ !!

لشدّ مايبدو ذلك مزعجا ومسليا ..

أجل ، مُسلّيا ، لأن نزوة الانتحار كـ نكل زواتنا يدثرها فرح غامض ، ولذة مخبولة .

ولكن نزوة الانتحار لن تنتصر .

إن الأرض صغيرة جدا فى سنها .. إنها لاتزال فى طفولتها . والحياة فوقها تدرج وتحبو .. وليس بهذه السرعة سيطويها القدر بيمينه .. ففرصتها لم تنته بعد ... بل لعلّها بسبيل أن تبدأ ، وتحقق فى ظل العقل والسلام معجزاتها .

إن عقل الإنسان وإرادته سينتصران ، ياأصدقاء الحياة .. فلا تراعوا ، ولا تفزعوا .

ولكن لا يخدعنكم تفاؤلكم الحق عن تبعات الموقف والتزاماته .

فالإرادة التى ستفوز هى إرادتكم .. إرادتنا جميعا .

أنت ... وأنا ... وجارنا ...

هذا الذى يجلس على منصة الحكم ... وذاك الذى يعكف على كتابه .. والآخر الذى يكنس الشارع ، أو يهمز الآلة ، أو يدير الساقية .

تلك المشيئات المتضامنة المتكتلة ، المتفانية ، هى التى ستقطع دابر النزوة ، وتعلن انتصار الحياة .

إن إرادة البقاء ستنتصر ، لأنها إرادة الله .

لقد أعطانا الله الحياة وديعة . وأغرى همتنا بالعمل الصامد الصاعد حين قال يخاطبنا عن هذه الوديعة .

« إنى مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » . !

كم هو رائع الدلالة ؛ هذا التعبير .

« فناظر كيف تعملون » !

فالعمل وحده هو رسالتنا على هذه الأرض .. وعندما تقف الحياة والفناء فى معركة فاصلة وجها لوجه ، فإن نوع العمل يتحدد ويستبين كفلق الصبح — وهو محق هذا الفناء ، وسحق قواه .

فصلاتنا ، ومناسكنا ...

محياانا ، ومماتنا ...

تفكيرنا ، وإصرارنا ...

كل خفقة فى صدورنا ... كل تهلل على ثغورنا ... كل خاطرة فى ذاكراتنا كل كلمة على ألسنتنا ... كل نبض قوى فى شرايينا ... كل عزم فى سواعدنا ... يجب أن يعبأ اليوم لاجتياز المنزلق الفاغر ، ولدحر نزوة الانتحار وإرادة الحرب ...

ولستُ أدرى ، ماهى على وجه التحديد الوسيلة الناجعة المجدية لهذه التعبئة .

ولكنى أدرى أن الإنسانية تنطوى على سرٍّ حافل .. وأنها حين تجمع ، ولو فى إصرار صامت على أمر ؛ فإنها تبلغه لا محالة ..

فليكن دورنا إذن التبشير بالحياة . ودعوة الناس جميع الناس — لما نقتها .. التنفير من الحرب . من إرادة الانتحار ... ودعوة الناس — جميع الناس لتحدّيها وازدرائها ...

لنقل للفرد — أى فرد — وحيث يكون .

* العن فى نفسك إرادة الانتحار ...

* والعنها جهرة ...

* واحتقر فى نفسك كل داعية للفناء .

* واحتقره علانية .

* وادفع الضرائب إذا كانت ستنضج لك رغيفا ، أو ترعرع زهرة .

* واقبض يديك ، إذا كانت ستصنع صواريخ النهاية والمصير الأليم.

* احمل فى قلبك دوما إرادة السلام ، والبقاء ، والحب ، والحياة .

فإذا حمل كل إنسان هذه الإرادة ...

إذا حملناها ، معاً ، وجميعا ، فالفوز لامحالة لنا ، ولها ، وللحياة .

الثروة القومية ، من شعائر الله

حدثتكم من قبل عن نظرة الإسلام إلى المال . وإنه ليراه عصبا من أعصاب الحياة . ويدرك شهوة الناس الضارية إلى اقتنائه . ولقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ أن الدنيا خَضِرَة حُلْوة . مشيرا بهذا إلى إغرائها الشديد . وسيطرتها الضاغطة على الأنفس .

ومن ثَمَّ ، فقد دعانا إلى الرفق فى طلبها ، وحذرنا من أن نمضى وراءها بأعين معصوبة ..

ألم أحدثكم من قبل بكلماته الرشيدة يقول فيها عن الدنيا ، «من أخذها بسخاوة نفس بورك له فيها ، ومن أخذها بأشراف نفس لم يبارك له فيها» .

ولقد كان محمد قدوة شامخة .. ليس فى موقفه كفرد تجاه المال وضراوته بل فى مسئوليته الاجتماعية تجاه أموال الناس . وحقوق الأمة .

إذا خان أحد من ذلك المال درهما واحدا ، فكأنما خانه جميعه ؛ وفى هذا الوطن ، لا يقبل محمد شفاعة ، ولا يبذل تسامحا ، ولا يتأوّل موقفا ...

أهدى رفاعة بن زيد الجذامى للرسول غلاما يقال له مِدْعم . .

وفى غزاة وادى القرى ، أصابه سهم وهو يحط رحل رسول الله عليه السلام .

فقيل له : يارسول الله ؛ هنيئا لغلامك . أصابه سهم فاستشهد .

فأجابهم : « كلا. إن الشملة التى أخذها من المغانم يوم خيبر ، لتشتعل عليه نارا »

أى ولاء للأمانة . ؟ !

وأية رعاية لأموال الناس ؟ !

« إن الشملة التى أخـــذها من المغانم يوم خيبر ، لتشتعل عليه نارا » ... ! ! !

رجل سوّلت له نفسه أن ينال من الغنائم ما ليس له بحق ... وهو لم يطمع فى كثير ، إنما هى شملة ... تساوى بضعة دراهم ...

ولـكن السرقة هى السرقة ... والخيانة ، لا يحددها الـكمّ . وإنما تحدد نفسها .

ولـكن . أهذا كل ما كافح به الرسول ضراوة الحرام فى الأنفس الخائنة ... أن يتوعد أصحابها بالنار ، بعد الموت ... ؟ ؟

أبدا ...

وإنما أعدّ لهم فى هذه الحياة جزاء صارما . حرمانهم من الثقة التى تؤهلهم لولاية أمور الناس . وعزلهم عنها .

علم ذات يوم ، أن أحد ولاته قبل هدية . فغضب غضباً شـديداً . واستدعاه إليه . فلما قدم سأله ، كيف يأخذ ما ليس له بحق ؟ .

فأجابه الوالى معتذرا بأنه إنما أخذ هدية ، ولم يأخذ رشوة .

فقال محمد كلماته الحازمة الواعية .

« أرأيت لو قعد أحدكم فى داره . ولم نوله لنا عملا ، أكان الناس يهدونه شيئا » ... ؟؟!

ثم أمره أن يدفع بالهدايا إلى بيت المال ... ونحاه عن العمل .

من أراد أن يتعرف إلى رجل يرعى أموال الشعب ، كما يرعى أكثر شعائر الله قدسية وإلزاما . فليقترب من محمد ... إنه ذلك الرجل .

ولقد طبع خلفاءه بطابعه ...

فأبو بكر ، الخليفة الأول يقف ديدبانا يقظا على مال الأمة ... ويبدأ بتحديد موقفه من نفسه ، فيحرمها حقها . ولا يمنحها كفاء عمله ومنصبه أكثر من حسو طائر قنوع .

ويثنى ببنت أحب الناس إليه ، هاديه ، ومنقذه من غاشية الجاهلية ... رسول الله عليه السلام .

فبعد موت النبى ، حسبت ابنته فاطمة رضى الله عنها ، أن لها حقا فى سهم الرسول بخيبر . فقصدت الخليفة أبا بكر تقول له :

— من يرثك إذا مت ... ؟ .

فيجيبها : ولدى ، وأهلى ...

قالت : فما بالك ورثت رسول الله دوننا ... ؟

فأجاب : يا بنت رسول الله . والله ما ورثت أباك ذهبا، ولا فضة .!

قالت : إذن ، فأين سهمنا بخيبر ، وصدقتنا بفَدَك . ؟

فأجابها أبو بكر رضى الله عنه :

— يا بنت رسول الله . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، إنما هى طعمة أطعمنيها الله حياتى . فإذا مت ، فهى بين المسلمين .

وهكذا عادت فاطمة ، لم تظفر بحاجتها ، فقد اقتنعت بأنه حق الناس ، وليس حقا لها ... ولم يتأول أبو بكر ليرضيها ، وهو الحريص أبلغ الحرص على إرضائها .

ولقد كان عمر يركض وراء بعير من بُعران الدولة ليبلوَ عافيته ، ويطمئن عليه . ذاكرا أنه وديعة الله عنده ...

ولا يزال يرن فى ضمير الحياة صوته الواثق ، وهو يقول :

« والله لو ضاع بالعراق عقال بعير من أموال المسلمين . لخشيت أن يسألنى الله عنه يوم القيامة » . !!

هكذا يرعى الدين أموال الناس التى جعلها الله لهم قياما ، ويقيم من تعاليمه ، ووصاياه ، وزواجره ، أسواراً شاهقة ، تذودعنها طمع الطامعين .

فمن نال من تلك الأموال بغير حق ، حمل وزر صنيعه فى دنياه .
ومن يغلُل ، يأت بما غلَّ يوم القيامة .

ولم يكُفّ الدين عن المال يد الحاكم المستغل فحسب ، بل كفّ عنه كذلك يد الفرد السفيه .

فهو إذ ينهى عن التبذير ، ويجعله قرين الكفر إذ يقول الله سبحانه : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين . وكان الشيطان لربه كفورا » .

هو إذ يفعل هذا ، يحدد للإنسان تجاه الثروة القومية للأمة موقفا دقيقا فطنا ... ويضع عينه على حقيقة كبرى . هى أن هذا المال الذى نتداوله ، ليس حقا خالصاً لنا ، ولو بدا أنه كذلك ... بل هو حق مشترك . يتطلب حماية مشتركة .

وإذا كان الإختلاس جريمة ، لأنه سطو على مال الشعب .. وإذا كان تبذّخ الحاكم جريمة ، لأنه إهدار وضياع لمال الشعب .

فإن تبذير المرء فى ماله الخاص ، جريمة كذلك ... لأنه تبديد لجزء من الطاقة الحية للأمة . ولأنه تمهيد لبقية جرائم المال .

فالإنسان الذى اعتاد ألا يرعى فى ثروته الخاصة عهداً ولا ذمّة ، سيكون نفس الشخص حين يوكل إليه شأن من شئون الثروة العامة للأمة ...

والإنسان الذى تعوّد الترف ، منفقا من ماله . يكون أكثر مبادرة إلى السرقة والانتهاب ، حين ينضب جيبه ويُمحل ... أفيأخذنا العجب إذن ، حين نسمع أنباء ما فرضه الرسول وخلفاؤه على أنفسهم من تقشف يكاد يشبه المجاعة ... ؟؟ !

كلا . فلقد كانوا فى مقام القدوة ... وما كاد ميزان هذه القدوة يضطرب

قليلا فى خلافة عثمان، حتى كانت الفتن العاصفة تلف حياة الناس بمثل الضباب ... !

أما قبل هذا، والميزان راسخ وقويم. فليس ثمة فتن. وليس ثمة سوى حياة عامرة بالصفاء، وبالتضحية ...

لقد كان للرسول شعار آثر به نفسه وأهله ...

ذلك الشعار هو أن آل محمد هم أول من يجوع، إذا اضطر الناس لأن يجوعوا ... وآخر من يشبع، إذا قدر للناس أن يشبعوا ... !!

ولقد كان لابنته فاطمة حق فى بعض السبى، فذهبت تطلب لنفسها خادما، كبقية الناس. ولكن أباها ردها ردا جميلا ... وأعطاها مكان الخادم قبلة أبوية حانية على جبينها. وقال لها وهو يجفف دموعها...

— ألا أدلك على خير من خادم ...«؟» سبحى ربك عند نومك ثلاثا وثلاثين، واحمديه ثلاثا وثلاثين، وقولى الله أكبر أربعا وثلاثين ... !!!

ويعيش أبو بكر بدرهمين فى اليوم ...

ويدعو عمر ابنه لأن يأكل يوما خبزا وزيتا ويوما خبزا وملحا، ويوما خبزا وماء ...

ويخاطب أمعاءه التى امتصتها سوء التغذية فيقول — قرقرى قرقرى كيف شئت، فوالذى نفس عمر بيده لن تذوقى اللحم أبدا، حتى ينزل الرخاء بالناس ...

ويدخل الحسن البصرى على إبراهيم بن أدهم ، فيجد أمامه كسرة خبز ونصف خيارة ... ويدعو الحسن ليشاركه طعامه ، فتبدر من الحسن حركة كأنه يتساءل بها : أين الطعام ... ؟؟

ويبتسم إبراهيم قائلا :

كل يا حسن ... فإن الحلال لم يعد يتسع للأسراف ... ! !

وبعد ؛ فما كان الدين ليجهل قيمة المال ونفعه . وما كان ليخلى بين الناس ، والثروة القومية بلا ضابط أو توجيه .

وإذا كان قد ترك لنا وضع النظم والقوانين التى تحمى هذه الثروة وتنميها ؛ فأنه قبل هذا ، ومع هذا ، قد ترك لنا من كلماته الهادية . ومن سلوك رُواده وصفوته ، ما يجعل رعاية الثروة القومية فى شتى صنوفها إحدى شعائر الله ...

وفى سبيل هذا ، هدّم بمعاوله كل آفات الدخل القومى من إقطاع ، واحتكار على النحو الذى أسلفنا تبيانه فى حديثنا « ليس فى دين الله إقطاع » .

طيبات الحياة، جميعا لهم

فى أساطير الفرس القدماء قصة طريفة عن ملك من ملوكهم أراد أن يصعد فى جوّ السماء، ويجوب أقطارها.

وأدلى برغبته هذه إلى مشيريه الذين انطلقوا يتدبرون الأمر، ويفكرون.

وأخيرا اهتدوا إلى حيلة حسبوها بارعة. فقد لاحظوا أن النسر طير قوى جبار، حتى إنه ليختطف الحمل أحيانا ويطير به عبر الفضاء ...

أفلا نستطيع نسور أربعة أن تحمل الملك إلى حيث يريد ...؟

وهكذا جلبوا أربعة نسور صغيرة ناشئة. وسهروا على تربيتها وشحذ قُواها. حتى إذا كبرت وصارت قادرة على العمل الذى ستُكلف به. جاءوا بخيمة مربعة. وغرسوا فى كل ركن من أركانها عودا من الصلب يحمل فى رأسه قطعة لحم كبيرة. وفى كل ركن من هذه الأركان أيضا رُبط نسر كبير. وجلس الملك وسط الخيمة ... ولبث فى مكانه لا يريم.

وبعد حين، ذاقت النسور مسّ الجوع، ورنت أبصارها إلى فوق. فوجد كل نسر تحاهه قطعة كبيرة من لحم شهى ... فأخذت فى الطيران

جميعها ... وكانت كلما ازدادت جوعا ، ازدادت إصرارا على الصعود محاولة أن تبلغ قطع اللحم التى كانت بطبيعة الحال تعلو ، كلما علت النسور وارتفعت . !

وأخيرا أدركها الكلال والأعياء ، وحطم الجوع والجهد المنزوف قواها . فلا هى تدرك اللحم فتأكل ، ولا هى هاجعة مستريحة من النصب .

وهكذا هوت إلى الأرض مهدودة القوى . وهوى معها الملك مدغدغ الأضلاع .!!

أوعيتم هذه القصة جيدا ... ؟

ألا إنه عبر الزمان الطويل ، عمّ بعض دعاة الدين ، مسيحيين ومسلمين ، أن يجعلوا من الناس نسوراً مخدوعة .. !

إذ أغرقوا فى تحديثهم عن الزهد إغراقا ، جعل منه ، أعنى الزهد قطعة اللحم التى سترد عن أرواحهم حدة الجوع والسغب ...

كما أوغلوا فى حديثهم عن الآخرة إيغالاً أنسى الناس أو كاد ينسيهم حياتهم التى يعيشونها ...

وما كان الدين الصحيح ليفعل هذا ويرضاه .

« قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق .. ؟ »

« قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ..... »

وإنها لعبارة جليلة ، وآية دقيقة التركيب ، دقيقة المفهوم .

« الطيبات من الرزق » ...

فهى تنفى وتستبعد كل ما كان خبيثا .

وهذا هو الحد الفاصل بين ما ينبغى للناس أن يزهدوه ، ويرفضوه ، وما يحق لهم أن يأخذوه وينعموا به ...

فاذا ترك الإنسان الدنيا ، وعلّق بصره بالقِيَم التى اصطنعتها له ظروف غير طبيعية ، من زهد ، واعتزال ، ونبذ كامل للحياة ... أملاً فى الوصول إلى تحقيق ذاته ، وتحقيق تبعاته ، فأنه فى الأغلب من صُور هذا النزوع سيجد بصره مشدوداً إلى قطعة لحم ليس إلى إدراكها سبيل ...

ولقد عاش الناس دهراً مديداً ، وهم محدوعون بقطع اللحم الطائرة .

فَعَل ذلك بهم سادتهم الذين كانوا يمثلون فى الأرض عُلُوا كبيرا ، ويسخرون لشهواتهم كل شىء . ويتخذون من البشر — جميع البشر — رقيقا وعُبدانا ..

وكانوا يطلقون أمام أعينهم السنبانة قطعا من اللحم مختلفة ومتنوعة ، ليهدئوا بها روعهم ، ويختلسوا جهدهم .

تارة تَتمثّل قطعة اللحم فى أن السلطان ظل الله فى أرضه ، فكل تضحيه فى سبيله مثوبتها الرضوان .. !

وتارة تتمثل فى أن الدنيا جيفة قذرة لا تليق بذوى الهمم العالية من الرجال .. !

وتارة تتمثل فى أن خالق الخلق ، قد قسم الرزق . ولكل حظه .

المعلوم . فمن حاول المزيد ، فقد أسخط الله ، وكفر بقضائه ..

ولكن الدين يوم جاء لم يكن غافلا عما يعمل الظالمون ولا غافلا عما يأفِكُ المبطلون .

فقد ذهب يجلجل فى وعى الناس أن ليس لله سبحانه ظل على الأرض ، سوى العدل ، والرحمة ، والمحبة .

أمَّا السلاطين السفهاء ، فهم ظلال الشياطين ...!

وذهب يخبرهم أن الحياة لم تخلق ليبصق الناس عليها . بل ليقدسوها ، ويعملوا أعظم العمل ، ويسعوا أبلغ السعى ، حتى يزيدوها عمارة ، وبهاءً ، ونموا ..

كذلك بدّد فى قوة ، أوهام العجز التى كانت تقول لهم ، ليس فى الأمكان أبدع مما كان .. ودعا المقدرات البشرية إلى محق كل ظلم ، ومقاومة كل إعنات .

وتحويل الحياة إلى مكان أفضل وأبهج وأسمى .. !

أجل ..

من أجل تحرير البشرية جاء موسى ، وعيسى ، ومحمد ، وإبراهيم ، وبقية رفاقهم من المرسلين .

تحريرها من ماذا .. ؟؟؟

ليس من الملوك الطاغين ، والقياصرة المدمرين ، فحسب ..

بل ومع ذلك ، من الأوهام التى كانت تكبّل عزمها ، وتطفىء نور الله فى عقلها .

وهكذا نفهم كلمة المسيح حين يقول :

« جئت أدعو المأسورين إلا الانطلاق » ..

ونَعِى كلمة محمد وهو يقول :

— « إنما أنا رحمة مُهداة » .

فأسرى العجز لاينطلقون إلا إذا جاوزوا مخاوفهم وأوهامهم .

والرحمة المهداة ، لاتحقق وجودها إذا بقى الناس فى حضيض عاداتهم الذهنية والاجتماعية القديمة التى كانوا عليها ، يوم لم يكونوا يعيشون لأنفسهم قدرما يعيشون لسادتهم الباغين .

يجوعون ، ليشبعوا .. ويزهدون ليقتنوا ، ويموتون تحت سنابك خيلهم المطهمة ، وصافناتهم الجياد .. !!!

فلينطلق الناس نحو الحياة . وليأخـــذوا فى شوق وإصرار كل طيباتها . فهى لهم .

وإن الدين لم يأت ليبارك الجوع واليأس . بل جاء ليـكن سنادا للناس فى دأبهم الحثيث على ممارسة العمل من أجل عيشة راضية وحياة حافلة .

ولن يكون أبدا ، عقبة فى سبيل الحياة .

الاستعمار إلحاد

نحن ، شعوبَ هذه المنطقة ، نعيش فى البلاد التى ظهر فيها موسى ، وعيسى ، ومحمد ..

وتنعكس على حياتنا ، وعلى مطامحنا ، تلك الحقائق الخالدة التى جاء بها الرسل الثلاثة . والتى اتفقوا عليها ، وبذالو جهدا مشتركا لتثبيتها ودَعمها ..

وأولى هذه الحقائق أن الله خلق عباده أحرارا .. ويريد لهم أن يعيشوا أحرارا .

ولقد قاوم موسى فرعون من أجل الحرية ..

وحاول المسيح فى عمره المبكر أن يضع عن كاهل المأسورين نيرقيصر..

وعلى يد محمد أتمت عمليات المقاومة آخر مراحلها ، وأجهز الأسلام على كسرى ، وقيصر .. وطوى بيمينه الضاربة الامبراطوريتين اللتين كانتا تستعمران معظم الأرض .. امبراطورية الروم ، وامبراطورية الفرس .. !

ولقد ظهر الاستعمار على أرضنا هذه ، فى عصر متقدم جدا ..

ولكن الاستعمار الحديث الذى شنّته على العالم دول الغرب الأوروبى، ربما يبدأ فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى على يد أسبانيا .

أسبانيا ... ؟؟!

لعلنا الآن نعجب لهذا .. ولكن ليست أسبانيا وحدها هى التى مال استعمارها للغروب وتوارى بزحف الحرية وتقـــدمها . بل هناك امبراطوريات أخرى كثيرة لم يبق منها سوى العبرة والمثل .. !

فقد كان ثمة « امبراطورية ألمانية » استحوذت على تنجانيقا ، والشمال الشرقى من غينيا الجديدة كما سيطرت على التوجو ، والكامرون ، والجنوب الغربى من أفريقيا ..

فأين ذهبت ، وذهب استعمارها .. ؟

وكان ثمة امبراطورية برتغالية ، واستعمار برتغالى ، يبسط جناحه على المحيط الهندى ويبسط جناحه الثانى على طول الشاطىء الأفريقى .

وكان هناك امبراطورية هولاندية تحتل باستعمارها العاتى ، سيلان ، وجاوا ، وسومطره ، وكل اندونسيا ..

بل كانت كذلك تستعمر جزءا هاما من أمريكا .

وكانت « نيويورك » هذه التى تقوم فيها اليوم الأمم المتحدة .. إحدى مدائنهم . وكانوا يدعونها « امستردام الجديدة » !!!

وكان هناك امبراطورية النمسا والمجر ، وكان هناك الامبراطورية البريطانية، والفرنسية، وكان الاستعماران الانجليزى والفرنسى يثقلان على الأرض

بأوزارها ، ويلقيان ظلهما الكريه على كل مكان ، فى آسيا ، وفى أفريقيا ، بل وفى أوربا أحيانا .. وفى العـــالم الجديد ، حيث كانت الولايات الإميريكية تدين بالولاء للوطن الأم ، وتدفع له الجزية والضريبة . حتى تبينت أخيرا على يد « توم بن » أنه ليس وطنا ، وليس أما .. وإنما هو استعمار ولصوصية وإجرام ..

هذه قصة الاستعمار فى سطور . عملاق عاش على دماء الغافلين يوم كان التاريخ حدثا ناشئا .. فلما استيقظ النوام ، وشب التاريخ وفتح عينيه . هزل العملاق وتلاشى ، وكنسته ريح الحرية إلى منفى سحيق ..

ترى هل ينتكس التاريخ ، ويعود طفلا .. ؟

وهل يُبعث الاستعمار مرة أخرى ليمضغ البشرية الناهضة ، ويعيدها أشلاء ومزقا .. ؟

ليس ثمة ريب فى استحالة هذا الوهم ، وبعده عن المعقول .

ومن خلال هذه المذركات ، تتبين شعوب البلاد العربية طبيعته دورها ، وكل الواجبات التى يفرضها عليها هذا الدور ويُمليها ..

إننا نحمل عبئا ثقيلا جدا .

فآخر جولات الاستعمار تتم اليوم على أرضنا وهى جولات يائسة .. وصحيح أن ضربة اليأس تنتهى بالخيبة والهزيمة . بيد أنها تستجمع كل قوى الضارب ، ومنتهى إمكانياته .

ولقد كتب على سكان هذه المنطقة أن تكون هذه الضربة من نصيبهم

ولـكنهم سيثابون عليها ، ليس فقط بتحرير أنفسهم وبلادهم ومصيرهم ... بل وبالذهاب بشرف الأجهاز النهائى على الوثن الجبار — الاستعمار ... !

على أن مكافحتنا الاستعمار تمثل معنى آخر باهرا . إذ هو امتداد لدورنا التاريخى الذى فرضته رسالات الله ، هذه الرسالات التى اختارت منطقتنا لتـكون أرض تحركاتها ، وموطن نشاطها ...

فنحن نناهض الاستعمار ، لأنه سرقة لأرزاقنا .

ونناهضه ، لأنه تمزيق لوَحدتنا .

ونناهضه ، لأنه عدوان على حقوق الإنسان فينا ...

وأيضا نناهضه ، لأنه إلحاد بشع ...

إلحاد فى آيات الله ومشيئته ...

وإلحاد فى حقوق الإنسان وحريته ...

وهكذا ، فنحن فى عصياننا الباسل للاستعمار ، وفى مقاومتنا الرشيدة لصَـلَفه ومحاولاته ، إنما نرفع لواء الله ، ولواء الإنسان ؛ ونمشى تحت راية الدين ، وراية الحضارة ...

إن الغرب المسيحى يفضح نواياه ، حين يصر على الاستعمار فى نفس الوقت الذى يؤكد فيه غيرته على الدين ، ونعته للإلحاد ...

فمن أىّ كلمات المسيح أخذ جواز المرور إلى الأرض الحرة التى يريد أن يحولها إلى مستعمرات ... ؟ ؟ !

ومن أى كلمات محمد ، يريد منا أن نأخذ مايدعونا للضيم والمذلة ... ؟؟؟

إذا كان الغرب الغيور على الدين ، يخشى علينا الفتنة والكفر . فان موقفنا منه ينبغى أن يزداد صعوبة وتعقدا ...

فهو يريد استعمارنا ...

وفى نفس الوقت يودُّ — حسب ظاهر منطقه — أن نزداد بالدين — أى دين — التحاما ، ونزداد له ولاء .

والولاء للدين يتطلب أول ما يتطلب دغدغة الاستعمار وإهانته .

والاستعمار فى بلادنا ، لم يجىء حتى الآن إلا من ذلك الغرب .

وهكذا تتجسم المشكلة ، وتبدو خيبة أمل الغرب مريرة ... !!!

على أنه ليس من واجبنا أن نضع لهذا الأشكال حلا .

ولكن الحلول المطلوبة منا اليوم ، هى لمشكلتنا مع الاستعمار نفسه .

ليس علينا ، أن نُنَسِّق له منطقه ، حتى يبدو غير مُهلهل ، وغير متناقض .

بل ربما يجب علينا أن نفضح هذا التناقض إذا استطعنا .

إننا من كافة الوجود مكلفون بمقاومة الإستعمار والأجهاز عليه فى جولته الأخيرة .

وبذلك نحقق أبهر مظاهر الإيمان بالله . وبالأنسان .

الناس إخوة

بين الدين والطبيعة تبادل مستمر ، فهو يأخذ منها ويصب فيها .

يضع عينه على ضروراتها ... ثم يستجيب لها بتعاليمه فيزكيها ... ويدعو للموقف الصحيح تجاهها ...

وإذا قلنا : الدين ... فنحن نعنى روحه ولُبابه المستهدفَيْن دائماً سعادة الإنسان وخيره .

ومن هذه الأشياء التى يلتقى فيها الدين والطبيعة لقاء سعيداً ووثيقاً . الاجتماعى والإنسانى ...

فالاجتماع ضرورة ... وليس فى مقدور الإنسان أن يعيش وحده ... والعزلة وهم ... ونحن فى أقصى حالات اعتزالنا نشارك الناس ويشاركوننا دون أن ندرى ...

ولقد سارع الدين إلى تلبية هذه الضرورة وعمل على دَعْم الأخاء البشرى بكل سبيل مستطاع فالناس إخوة ...

وأخوتهم هذه ، حقيقية ، لا مجازية . فأبوهم واحد . وأمهم واحدة . بل إن الأخاء لينفسح ويتراحب حتى يشمل الكائنات كلها .

ولقد كان جليلا وصادقا ، القديس « فرانسيس » حين قال : « أخى الطير » ...!!!

أجل . إن كل ما فى كون الله أخ لنا ورفيق ... وإحساسنا بهذه الأخوة ينفذ بنا إلى أسراره الكبرى وحقائقه الخالدة .

والفترات الرضية العظيمة فى تاريخ البشر ، هى تلك التى كان يتفوق فيها التعاون على الخذلان ، والأخاء ، على الفرقة ...

وللدين فى تزكية الأخاء البشرى دور جدّ عظيم .

ها هو ذا المسيح يرسل القول والتعاليم كسنا الفجر .

« سمعتم أنه قيل ، تحب قريبك وتبغض عدوك ... وأما أنا ، فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ...»

ثم يبين أن هذا السلوك سبيل الكمال الذى يطمح إليه المؤمنون فيقول :

« لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم . أليس العشّارون أيضاً يفعلون ذلك ...؟؟ »

« وإن سلمتم على إخوتكم فقط ، فأى فضل تصنعون ؟؟... أليس العشّارون أيضاً يفعلون هكذا ؟؟ . »

« فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل ...»

وهذا هو محمد عليه السلام ، لا يترك سبباً من أسباب إيقاع الأخاء والتكافل إلا سلكه وأتاه .

وفى أحاديثه التى ترسم آداب الحديث ، وآداب المشى ، وآداب المعاملة ، وآداب العلم ، وآداب الاجتماع كله ... نُبصر فيضاً مشرقا يبهر الأبصار..!

فهو يرعى الأخاء والمحبة والتعاضد فى كل مواطن الحياة .. فى الأسرة ، وفى الشارع ، وفى السوق ... وحيث يلتقى إنسان بإنسان ...

ويبدأ فيعلن فى حديث له أن الله يسأل عن صحبة ساعة ...!!

أى أنك إذا التقيت صدفة بإنسان . فإن الله سائلكما عن الدقائق التى ستقضيانها معا ...

ثم يقول :

« لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ...

ويقول :

« إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث . ولا تجسّسوا ، ولا تحسّسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تداروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

ويقول :

« إذا كانوا ثلاثة ؛ فلا يتناجى اثنان دون الثالث ؛ فإن ذلك يحزنه » .

ويقول :

« لا تؤمنوا حتى تحابّوا » .

« وإذا أحب أحدكم أخاه ؛ فليخبره بأنه يحبه » .

ويقول :

« ما من رجل يعود مريضا إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له » .

« والذى نفسى بيده . لأن أمشى فى حاجة أخ لى حتى تُقضى ، أحب إلى من أن أعتكف فى مسجدى هذا شهرا » .

ويقول :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » .

ويقول :

« لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنا فوق ثلاث » .

ويقول :

« من رأى عورة أخيه ، فسترها ، كان كمن أحيا موءودة » .

* * *

والصداقة الإنسانية كالكائن الحى ، تموت جوعاً إذا لم تجد غذاءها . وغذاؤها فى كل حركة طيبة ...

فى البسمة الصادقة ، فى الكلمة الحلوة ، فى المعاونة اليسيرة العابرة ...

وإنا لنبلغ من العظمة نفس المستوى الذى نبلغه من مشاركتنا الآخرين فى سرّائهم وضرائهم.

وحين نبذل للناس من ذوات أنفسنا مودة وصفاء ، فإن الحياة بين الباذل والمبذول له تتحول إلى بهجة أكيدة ، وتتوارى كل مُنغصاتها ، وتذوب فى حرارة هذه العاطفة الودودة الصادقة .

والعلاقة بين الإنسان ، والإنسان من أثمن ألوان نشاطنا .

والدين الذى يدرك هذا ، يدعونا لأن نكون أكفاء لهذه العلاقة ، حريصون عليها .. وهذا يقتضى أن نرعى كافة حقوق الأخاء البشرى رعاية كاملة ، ونعمل على توسيع نطاقه .

ومن هنا سرّ دعوته الحارة ، إلى التسامح والبذل .

فأنت لا تحسن مؤاخاة الناس ، إذا تتبعت عوراتهم ، وتسقطت زلاتهم ...

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا ذكرت لهم نقائصهم ، وتناسيت فضائلهم ومزاياهم .

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا أردت أن تكون آخذا فحسب ، ولست معطياً .

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا بخلت عليهم بكلمة اعتراف وتكريم ، ولم تجعل عناءهم موضع ازدهائك ، وإطرائك وتقديرك .

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا أردت أن يكونوا طبعات مكررة لك ... وأن يُلغُوا آراءهم من أجل رأيك .

فالأخاء ، والصداقة ، يعنيان أن يكون هناك أكثر من واحد .. اثنان، أوثلاثة، أو ما شاء الله من كثرة . لأنها تفاعل وتبادل . فمحاولتك التفرد والأثرة ، يبطلان حكمة الصداقة ، وينفيان قيامها .

وما ترك الدين ذلك ، ولا شيئاً من ذلك ، إلا ألقى عليه إشارة ضوئية تشير إلى أهميته ، وإلى حتميته لأينا ع الأخاء الإنسانى بين الناس .

فلنفسح الطريق للكلمة

ذات يوم ، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابى يسأله حظا من الفىء... وأخذ مكانه من الصف ، ومضى الرسول يعطى الناس. ، وبعد أن انتهى من توزيع الأعطيات ، اندفع الأعرابى نحوه فى غلظة وبداوة ، وجذبه من جُماع ثوبه وهو يقول :

— يا محمد ، زدنى ... فإن المال مال الله ، وليس مال أبيك ...

وابتسم الرسول عليه السلام فى رضا عظيم ... وقال ، وهو يهز رأسه

— صدقت يا أعرابى ... المال مال الله ... !!!

ولكن الصحابة الذين شهدوا هذا الحوار ، آلمهم أبلغ الألم فظاظة الأعرابى ، وسوء تصرفه ... وكان أكثرهم امتعاضا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ... فشق الناس كصفحة السيف ، وواجه الأعرابى هاتفا :

— دعنى يارسول الله أضرب عنقه .

فازدادت ابتسامه الرسول تألقا ، وقال :

— دعه يا عمر . فإن لصاحب الحق مقالا ...

هذا مشهد ...

وهناك مشهد آخر ، حين وقف عليه السلام يخطب أصحابه فقال :

— « ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه » ..

ومشهد ثالث ...

حين راح يعلم أصحابه فيقول لهم :

— «لا يكونَن أحدكم إمَّعة . يقول : إذا أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت »..

« ولكن ليوطن أحدكم نفسه ، إذا أحسن الناس أن يحسن ؛ وإذا أساءوا أن يتجنب إساءتهم » .

هكذا يدعو محمد إلى الموقف الرشيد الذى يجب على كل إنسان أن يتخذه تجاه الحق والباطل .

يقول كلمته ، مؤيدا الحق دون مبالاة بالعواقب ...

ويقولها ، دامغا الباطل دون مجاملة أو تهيّب ...

والحق والباطل يمازجان كل شئون حياتنا الدنيا ، ويختلطان فيها اختلاطا يكاد يخفى معالمهما المميزة .

ومن ثم كان دور الكلمة الحرّة الصادقة الجريئة فى تمييز الخبيث من الطيب عظيما ومحتوما .

وليس ثمة واجب أقدس من واجبنا تجاه هذه الكلمة ، مسطورة ، كانت أم ملفوظة .

وهذا الواجب يتمثل فى إفساح المجال أمامها حتى تنطلق قوية كالحق، ومبينة كفلق الصبح .

الكلمة ...

ما أروع ما تعبر عنه هذه الحروف اليسيرة ...

إنها لتشير إلى المفتاح الذى كان، ولا يزال يَفُضُّ أمام التقدم الإنسانى كل باب مغلق .

وما أكثر شهداء الكلمة عَبْر التاريخ ...

كان سقراط شهيدها فى معركة الحقيقة ...

والمسيح، شهيدها فى معركة المحبة ..

ومحمد، شهيدها فى معركة التوحيد الكبرى ...

وعشرات، ثم مئات، ثم آلاف من أفذاذ البشر . عبَّدوا طريق الحضارة بالكلمة، ثم قدموا حيواتهم العظيمة قربانا لها ...

وليس يضيق بالرأى المخالف سوى مغرور صغير، وإنما يفتح قلبه للرأى المعارض، كل عظيم صادق العظمة، مضيء الوجدان .

على أن الدين، وهو يحمى الكلمة الشريفة من أعدائها، لم يَنْسَ أن يحميها من أصدقائها ...

وأصدقاؤها، هم أولئك الذين يُفتنون بها فتُونا يقف بهم عندها، ويعميهم عما سواها ...

كما أنه وهو يدرك قيمة الكلمة، حذَّر من الخطر الكامن فى سوء استعمالها .

فدعانا إلى التفكير قبل القول ، فإذا تكلمنا ، فمن سداد وصدق .

يقول الله سبحانه : « وقولوا للناس حسنا » ، « وقولوا قولا سديدا » ...

ويقول الرسول محذرا :

— «وهل يَكُبُّ الناسَ فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» ؟!!

ويعتبر الدين الكلمة المتجنية الظالمة بهتانا وإثما مبينا ؛ والكلمة الموتورة الحاقدة ، ضلالا بعيدا ؛ والكلمة الواشية الكاذبة ، خسرانا لصاحبها ، ووبالا عليه ...

طالما كان الرسول يقول لقومه .

— « لا تحدثونى عن أصحابى شيئا ؛ فأنى أحب أن أخرج إليكم وأنا منشرح الصدر » .

وبهذا السلوك الفذ ، يرسم حقا آخر من حقوق الكلمة : ألا نقولها لِنُفوغر بها الصدور ، وألاَّ نُصغى إليها إذا كانت تحمل هذا الغرض الحقير .

إن سلطان الكلمة ، وشرفها ، لا يتمكنان من أمة إلا رفعا شأوها ، وفتحا أمامها أبواب مستقبل فاضل وعظيم .

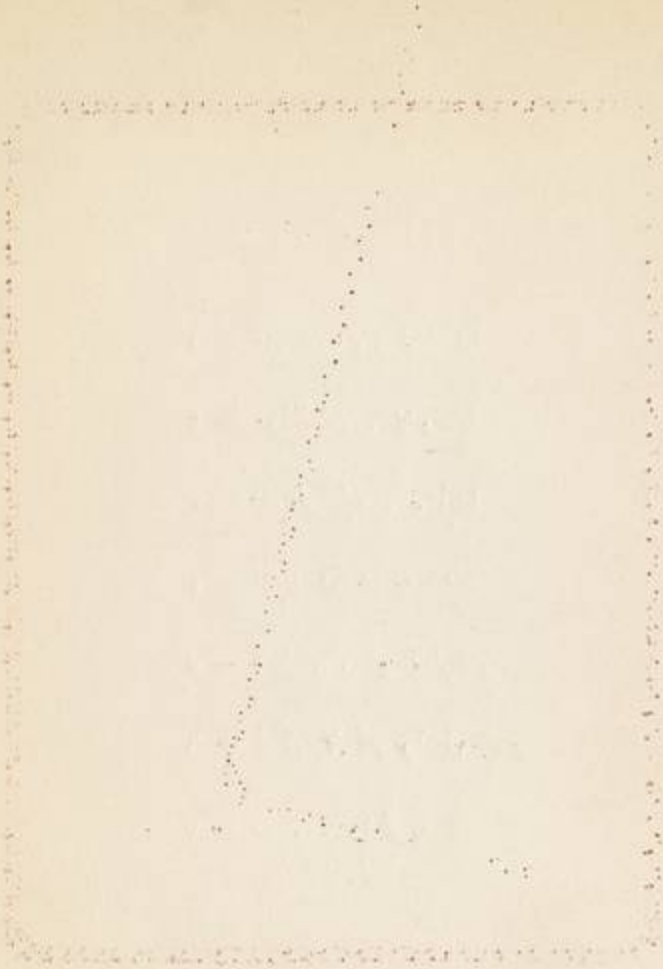

للمؤلف

١ — من هنا . . نبدأ

٢ — مواطنون ، لا رعايا

٣ — الديمقراطية . . أبدا

٤ — الدين فى خدمة الشعب

٥ — هذا . . أو الطوفان

٦ — لكى لا تحرموا فى البحر

٧ — لله . . والحرية

يوزع الكتاب خارج الجمهورية المصرية
شركة فرج الله للصحافة

ثمن ١٠ ص

893.791
K5265

JUN 22 1962

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58887792
893.791 K5265 Din fi khidmat al-sh

893.791-K5265